زين العابدين الركابي

علاقات الكبار: النبي محمد يقدم أخاه المسيح للبشرية

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

ⓒ دار غيناء للنشر، ١٤٢٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الركابي، زين العابدين
علاقات الكبار: محمد يقدم أخاه المسيح للأسرة البشرية / زين العابدين الركابي- الرياض، ١٤٢٧هـ.
ص. ٨٥, ١٤سم ×٢١سم
ردمك: ٩-٩-٩٤٥٤-٩٩٦٠
١- السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٢٧/٢٠٢٥هـ
رقم الإيداع: ١٤٢٧/٢٠٢٥هـ
ردمك: ٩-٩-٩٤٥٤-٩٩٦٠

غَيناء للنشر
Ghainaa Publications

الرياض ت: ٢٢٩٥١١٩ ف: ٢٢٩٥٠١٩
ghainaabook@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدمة:

لماذا يُحب؟

إن (الحب) أحلى وأعلى قيمة في الدين والدنيا.

فيما يختص بمحبة الإنسان للإنسان، هناك بواعث كثيرة للحب.منها:

انفراج الشخصية وانشراحها.. والإخلاص.. والصدق.. والوفاء..والحياء.. والعقل.. والعدل.. والأمانة.. ونبل الكلمة.. والتبسم الحلو.. والسماحة.. وحسن الإصغاء.. ومحبة التشاور.. والكرم.. والإغضاء عن العيوب.. وتشجيع المخطئ على النهوض بصب الأمل في فؤاده.. واجتناب إحراج الناس.. وخصوبة الشعور الإنساني.. والاشتياق إلى العطاء وبذل المعروف وتقديم العون للناس.. والاعتراف بالجميل.. والاحتفاء بالجمال.. وتعظيم كرامة الإنسان وحرمته.. والرفق في التعامل مع كل شيء.. والرحمة بكل شيء.. والحرص على تعليم الناس وتنوير حياتهم بالمعرفة

الصحيحة.. والتطابق بين القول والفعل.. والتواضع.. والنظافة.. والرغبة الدائمة المتجددة في العفو والصفح.. وإيثار السلام.. والنشاط الجم..وإتقان العمل..وطلاقة الوجه..والدعابة الراقية.

ومحمد بن عبدالله - نبي الإسلام - يُحَبّ لهذه الصفات جميعاً التي تكاملت كلها في شخصه - ظاهراً وباطناً، سراً وعلانية-، وثبت عليها في سائر حياته بلا انقطاع: حياته الفردية والعائلية والاجتماعية.. مع أزواجه وأولاده وأحفاده وأصحابه.. وأعدائه.

محمد.. هذا الإنسان الذي تفخر الإنسانية بانتمائه إلى نوعها:

يُحَبّ لتلك الصفات النبيلة. فما من إنسان سليم التكوين، حاضر العقل، حي الضمير إلا يحب تلك الصفات. فالإنسان مفطور على حب الجمال في كل شيء.

محمد النبي يُحَبّ لتلك الصفات.

ويحب حباً مضاعفاً فريداً لفضيلة أخرى فريدة وهي: حبه العميق، وتقديره العالي لقادة البشرية الذين سبقوه وهم الأنبياء والمرسلون.

لماذا هي فضيلة تستحق الحب العميق الفريد المضاعف؟

إن التاريخ البشري - والواقع كذلك - شاهدان على ظاهرة رديئة معتمة لازمت الناس مذ كانوا وإلى يوم الناس هذا وهي: ظاهرةالتنافر والتباغض والتحاسد والتناكر والتجاحد بين (الأنداد).

هذه الظاهرة الحسود والجحود - المفسدة للعلاقات -: قد برئ منها نبي الإسلام براءة تامة، وتطهر منها تطهراً كاملاً.

كيــف ؟

إن الأنبياء والمرسلين السابقون هم (أنداد) النبي محمد في كل شيء تقريبا: في الاصطفاء الإلهي.. وفي تنزّل الوحي.. وفي تبليغ رسالات الله.. وفي الكمال الخلقي.

ومع ذلك: قدم النبي محمد نموذجاً عميقاً مضيئاً على الاحتفاء المدهش بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين.

لقد كان محباً لكل من سبقه، فرحاً بوجود كل رسول صدح بالحق والخير والجمال فوق هذا الكوكب. مؤمناً بكل كتاب نزل على كل رسول، معرفاً بكمالات كل نبي رسول سبق.

صحيح أن أخلاق النبيين من السمو والعظمة بحيث لا

يصل إلى مثلها بشر غير مصطفى، وغير موحى إليه.

صحيح هذا.

أما أن تُذكر أسماء إبراهيم وموسى وعيسى في ذات الكتاب الذي نزل على محمد: أكثر جداً مما يذكر اسم محمد نفسه. فهذا جديد فريد مبهر في عالم الشرائع والأخلاق والعلاقات.

- لقد ذكر - في القرآن -:

أ- اسم إبراهيم ٤٨ مرة.

ب- وذكر اسم موسى ١٣٦ مرة.

جـ- وذكر اسم عيسى ٣٦ مرة.

د- في حين ذكر اسم محمد ٤ مرات، واسم أحمد مرة واحدة.

وحاصل الجمع أن محمداً ذكر - باسميه هذين - خمس مرات

فحسب!!.

وللقارئ أن يجري عملية حسابية توضح الفروق العددية: بالمقارنة بين نسبة ذكر اسم محمد، ونسبة ذكر إبراهيم وموسى وعيسى في الكتاب الذي نزل على محمد، فهي فروق

تستدعي العجب، وتثير الإعجاب.

وهـذا نفسه برهـان علمي وأخـلاقـي على (صـدق نبوة محمد وثبوتها).فما يبلغ هذه الدرجات العليا من الإنصاف والتجرد وإيثار أنـداده على نفسه: في كثرة الثناء، ووفرة الذكر والتمجيد.ما يبلغ هذه الدرجة الرفيعة: إلا نبي حق، تمحض للحق، يصدع بما يوحى إليه، ولا يكتم منه شيئاً.

يتعزز هذا المفهوم الباعث على محبة محمد: بمفاهيم أخرى عضد: باعثة على محبته أيضاً:

١- مفهوم: أن القرآن الذي أوحاه الله إلى النبي محمد هو السجل الأكبر الحافظ الموثق لسير الأنبياء والمرسلين وكتبهم وأصولهم ورسالاتهم ودعواتهم الحقة.

أولاً: هو سجل سير الأنبياء ورسالاتهم على الإجمال:

- ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** ﴾ .
- ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ .
- ﴿ **وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ** ﴾ .
- ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ .

ثانياً: هو سجل سير الأنبياء ورسالاتهم على التفصيل:

لقد وردت سير الأنبياء والمرسلين في سياقات قرآنية متنوعة منها - مثلاً - ما ورد في سورتي: الأنعام، ومريم:

أ- في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ب- في سورة مريم:

- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.
- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.
- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.
- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾.

٢- ومفهوم: أن دين محمد (دين عالمي إنساني)، لا دين محلي ولا دين عنصري.

وبموجب عالمية الإسلام وإنسانيته:

أ- اتسع صدر محمد وروحه وعقله: للأنبياء جميعاً، والكتب المنزلة كافة.

ب- انطلق لسانه بالثناء على إخوانه الأنبياء والمرسلين.

٣- ومفهوم أن الرسالة الخاتمة إنما هي رسالة تامة كاملة.. ومع ذلك كلف النبي: الاقتداء بمن سبقه من الأنبياء في أصول الاعتقاد وعزائم الإيمان: ومكارم الأخلاق.

أ- ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾.

ب- ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾.. والإشارة - هنا - إلى سلسلة الأنبياء والمرسلين الذين تألقت أسماؤهم في السياق السابق - مباشرة - لهذه الآية.

نعم.. يُحَبّ النبي محمد لذلك كله.

- لصفاته وأخلاقه التي انتظمت خصائص الجمال والكمال.

• ولعلاقته الحميمة الرفيعة بإخوانه الأنبياء والمرسلين الذين انتشروا في الأزمنة والأمكنة، ونشروا المعرفة والضياء والأخلاق: منذ نوح وإلى عيسى ابن مريم عليهم صلوات الله ورحماته وبركاته أجمعين.

وإنما كانت هذه المقدمة: إشارات مجملة إلى (علاقات الكبار) التي اختص هذا الكتاب بتفصيلها في فصوله ومباحثه.

إن هذه العلاقة إذ نستبين منها: في أي مرتبة سامية كان يحيا المصطفون الأخيار: فإنها تغري كبار العقول والفوس من البشر- في كل عصر-: بالتسامي بعلاقاتهم: بعضهم لبعض: صدقاً..ووفاء.. ونبلاً.. ورقياً.

وهذا نوع من الاقتداء بالأنبياء والمرسلين.

فمن مقاصد: ابتعاث الأنبياء والرسل إلى الناس: (الإثبات العملي أو التطبيقي بأن السمو أمر ممكن بل مستطاع في واقع الحياة البشرية، وليس خيالاً ذهنياً مجرداً).

ولهذا كان الأنبياء من جنس البشر، لا من جنس الملائكة.

أ- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

ب- ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ .

فالتماثل في النوع والخلقة والطباع والخصائص يتضمن (استطاعة) البشر: الاقتداء بالأنبياء والمرسلين في مجالات عديدة منها (محاكاتهم)- بقدر الاستطاعه والهمة - في بناء علاقات رفيعه - بين البشر - مجردة من التباغض والتحاسد والتجاحد، مفعمة بالحب والتقدير وتبادل الثناء الصدوق، والذكر الحسن.

الفصل الأول

الوحدة الوثقى
على (أصل) النبوات

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا
إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾

الوحدة الوثقى
على (أصل) النبوات

هل مشى على كوكبنا الأرضي هذا: أنبياء مباركون، بلّغهم الملاك جبريل: كتباً موحاة من اللّه تعالى:

- مضمونها: معرفة اللّه ومحبته والعيش الرضيّ في معيته، والاستعداد الكريم للقائه في الدار الآخرة.

- مضمونها: رقي الإنسان الفرد وسعادته وبلوغه الكمال الميسور.

- مضمونها: تخصيب الحياة الإنسانية المشتركة بقيم العلم والمعرفة والإخاء والرحمة والعدل والصدق والوفاء والتسامح والحق والجمال؟

هل مشى على كوكبنا هذا: أنبياء مرسلون: هذه صفاتهم ورسالتهم؟

إن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يجيبون عن هذا السؤال بـ (نعم) ... نعم .. نعم: لقد تمشّى على كوكبنا هذا - في أزمنة متعاقبة - أنبياء مرسلون: تلك صفاتهم

ورسالاتهم.

وهذا الجواب من أهل الكتاب (ضرورة إيمانية): يقتضيها إيمانهم بأنبياء الله: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإخوانهم - صلى الله عليهم وسلم أجمعين - وهذه الحقيقة العلمية الإيمانية الثابتة لدى أهل الكتاب: اعتمدها الإسلام (مرجعاً) من مراجع ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (من حيث الإيمان بأصل: إنزال الكتب وابتعاث الرسل).

والدليل على هذه المرجعية هو:

١- ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ وأهل الكتاب هم من أهل الذكر: الذكر الوحي الذي تنزل على أنبيائهم من قبل.

٢- ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ والذين عندهم علم الكتاب - الموحى به من قبل - هم أهل الكتاب.

٣- ﴿ **الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي**

كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾.

٣- ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾.

والذين ما قدروا الله حق قدره: بنفي أصل الوحي. وبأن الله لم ينزل على بشير وحياً من قبل.. الذين قالوا هذا هم مشركو العرب.. والحجة الغالبة التي أبطلت مزاعمهم هي: الاستشهاد بما نزل على موسى من وحي الكتاب.

٥- ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾.

٦- ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

٧- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾.

هذه - جميعاً- نصوص براهين تتضافر على إثبات حقيقتين:

أ- حقيقة: أن الوحي الذي نزل على محمد مسبوق بوحي

نزل على أنبياء أهل الكتاب، وفي مقدمتهم موسى بن عمران، وعيسى ابن مريم - عليهما السلام-.

ب- وحقيقة: أن الأنبياء يُصدّق بعضهم بعضاً.

ولئن برهنت النصوص الآنفة على الحقيقة الأولى، فإن برهان الحقيقة الأخرى: ثاوٍ في النصوص التالية:

١- فموسى مصّدق لمن قبله من الأنبياء. ولذلك اقترنت - في القرآن- مضامين مرجعية الصحف التي أنزلت عليه بمضامين مرجعية الصحف التي أنزلت على إبراهيم:

أ- ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾.

ب- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾.

٢- وجاء المسيح مصدقاً لموسى:

أ- ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾.

ب- ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

جـ- ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ .

٣- وجاء محمد مصدقاً لموسى وعيسى:

أ- ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ .

ب- ﴿ وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

جـ- ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

ومن هنا. رسم النبي محمد صورة جميلة لهذا الموكب النبوي المنير المتناسق المتكامل الذي تعاقبت قوافله المباركة - في الزمن -: قال النبي محمد: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة؟ فأنا تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

وثمةَ حديث آخر يشرح هذا الحديث: بإعلان (أخوة الأنبياء)، ووحدة دينهم. فقد قال النبي محمد: «**أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء أخوة، أبناء علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**».

إن طلاب الحق: يجمعهم الحق الذين يؤمنون به كله.

ولذا، فإن المنصفين من أهل الكتاب يصدقون ما نزل على محمد.

أ- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

ب- ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴾

جـ- ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ

السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

ولأجل الإيمان بالحق كله – الذي نزل على موسى وعيسى ومحمد وسائر النبيين-: أُمر الجميع – أهل الكتاب والمسلمون بهذا- ﴿ بهذا قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

وقد عبر النجاشي عن هذه الحقيقة فقالك «لم يختلف ما أنزل على محمد بن عبدالله عما أنزل على عيسى ابن مريم مقدار شعرة».

الفصل الثاني

علاقات الكبار: النبي محمد يقدم أخاه المسيح للبشرية

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

علاقات الكبار:
النبي محمد
يقدم أخاه المسيح للبشرية

لو أن أكبر وأنجح الشركات الأمريكية والأوربية للعلاقات العامة: احتشدت جميعاً، في تعاون وثيق، وجندت نفسها، وسخرت إمكاناتها البشرية والفنية والمادية من أجل (التعريف الطوعي المجاني) ب (نبي الله عيسى) صلى الله عليه وسلم- وتقديمه للبشرية في أجمل صورة: فماذا تقول الأسرة الإنسانية عن هذا الفعل؟ وبم تصفه؟ .. تصفه - بلا ريب - ب (سعة الأفق). و(رقي العمل غير الربحي)، و(الوفاء للمسيح الجليل). إلى آخر الأوصاف الجميلة التي يستحقها عمل عظيم من هذا النوع.

لئن كانت هذه (خطة متخيّلة)، فإن هناك (حقيقة) تفوقها - بملايين الدرجات - في كثافة التعريف، وعمق مضمونه وصدق أسلوبه، وحميمية روحه، وطول مداه الزمني.

وهذه الحقيقة - الدينية والتاريخية والإنسانية والأخلاقية - هي: أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم: قدم أخاه المسيح

عيسى بن مريم، إلى الأسرة البشرية: في أجمل صورة. ولم يكن التقديم والتعريف (برنامج) علاقات عامة ليكتنفه ما يكتنفه من القصور والتقصير، وإنما قدم نبي الإسلام أخاه العظيم من خلال منهج معصوم من القصور والتقصير وهو (النص القرآني) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. (ونص حديث النبي صلى الله عليه وسلم) الذي لا ينطق عن الهوى.. ولم يكن (المدى الزمني) لهذا التعريف والتقديم محصوراً في حملة محدودة بأسبوع، أو شهر، أو سنة، بل امتد زمن التعريف والتقديم: منذ نزول الوحي على النبي محمد في القرن السادس الميلادي، وإلى قيام الساعة.. ومنهج تقديم المسيح والتعريف به ليس نصاً معطلاً ولا وثيقة هامدة مودعة في مكتبة أو متحف، بل إن هذا التقديم: قرآن حي، يتلى في الصلوات، ويدرس في المدارس والجامعات، ويذاع في الإذاعات: المسموعة والمرئية: بالغدو والآصال.

ومن حق كل عاقل وقارئ وباحث: أن يسأل – بموضوعية وذكاء وجد – هذا الكلام مجرد دعوى، فما الدليل أو البرهان عليه؟

والجواب: هذا هو البرهان:

أولاً: البرهان على تقديم السيد المسيح والتعريف به.

١- البرهان من القرآن:

أ- التعريف بمعجزة الميلاد: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

ب- التعريف بشخصيته الجميلة (الوجيهة): ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

جـ- التعريف بإعجاز نبوته ورسالته: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾

د- التعريف بالإنجيل الذي أنزل عليه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

هـ- التعريف بمنهجه ودعوته: فهو منهج يدعو إلى توحيد الله جل ثناؤه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، وهو منهج يعلم الناس الحكمة، ويبصرهم بمعايير رفع الخلاف: ﴿وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

٢- البرهان من السنة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

أ- «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل أدم سبط الشعر يهادى بين رجلين ينطف رأسه ماء، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا ابن مريم».

ب- نعت النبي محمد أخاه عيسى ابن مريم - عليهما السلام - فقال: «ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس» أي حمام: كناية عن النقاء والإشراق والوضاءة.

جـ- وقال:«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة. والأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

د- وقال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». قال النووي - وهو من أحد علماء

الإسلام الكبار – في شرح هذا الحديث:«هذا حديث عظيم الموقع، وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد».

ثانياً: البرهان على تقديم القرآن للحواريين وأتباع المسيح في صورة تناهت في الحسن والكمال والأناقه الروحية.. فقد انتظم تقديم سيدنا المسيح: تقديم حوارييه الصالحين الكرام:

١- ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ** (أي مبغضوه) **قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٢٥﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾.

٢- ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ** ﴾.. وفي هذه الآية دعوة للمسلمين ليقتدوا بحواريي المسيح – رضي الله عنهم: في نصرة الأنبياء ومنهج الحق.

١- وما يلحق بهذا: ثناء الله – في القرآن – على أتباع المسيح الذين اتبعوه بإحسان:﴿ **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** ﴾.

ومما يلحق بما تقدم، ويندغم فيه: دفاع القرآن عن

نصارى صالحين، ثبتوا على إيمانهم فتعرضوا للأذى الشديد فثبتوا أيضاً.

١- من هؤلاء: فتية الكهف - الذين سميت سورة قرآنية باسم كهفهم - وقد كان هؤلاء شباباً نصرانياً صالحاً: معقول المنهج ولذا مجّدهم القرآن، وخلد ذكراهم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

٢- ومنهم: أصحاب الأخدود، وهم جماعة من النصارى أيضاً: ولقد خلد القرآن ذكرهم، وجرّم وقبح مضطهديهم ومعذبيهم. ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

ونوجز القول فنقول: إن البراهين تواترت وتعاضدت على أن الإسلام قدّم المسيح - صلى الله عليه وسلم - وقدم

إنجيله. وقدم منهجه ودعوته، وقدم حوارييه في أكمل وأحلى مشهد. كما دافع عن مؤمني النصارى والمضطهدين دفاعاً اتسم بالمحبة لهم، وبكراهية مضطهديهم الطغاة.. وإنه ليسرنا أن نهدي هذا الكلام – الموثوق بالبراهين – إلى مسيحيي العالم.

ولئن كان لابد من تمام أو ختام، فها هو: كيف يُلام الإسلام على تقديمه للمسيح في هذه الصورة؟.. كيف يُلام النور بسبب أنه نور.. كيف يكون نهج تقديم المسيح في جلال ووقار: ذريعة للانتقاص من محمد ودينه؟

نحن نؤمن بالمسيح نبياً رسولاً، ونحبه ونعظمه ونتبع النور الذي جاء به. فإن لم يؤمن أولئك بنبينا (والإيمان اختيار حر): فلا أقل من أن يحترموه.. وهذا الاحترام ليس محمدة خُلُقية فحسب، بل هو – موقف عقلاني، فمن شأن العقلاء: أن يقدروا ويحترموا من يعظم من يحبون ومن يؤمنون به.

ومن قبل ومن بعد: يبدو التعصب والتهارش بين المسلمين والمسيحيين.. عبث صغار في ضوء العلاقة الراشدة الصادقة الرفيعة بين الرجلين الكبيرين جداً.. محمد والمسيح. وهل يعلم مسيحيو العالم: أن (الإيمان) بالمسيح عيسى بن مريم

نبياً ورسولاً هو: أحد أركان الإيمان بالنسبة لكل مسلم، بل هو (شرط صحة) في إيمان كل مسلم بالنبي محمد، بمعنى أن إيمان المسلم بالنبي محمد: باطل ومردود ما لم يقترن بالإيمان بالمسيح عيسى بن مريم نبياً رسولاً ؟

هل يعلم مسيحيو العالم هذه الحقيقة ؟

بعضهم يعلم: ولا سيما مسيحيو المنطقة العربية الذين يعرفون اللغة العربية التي تمكنهم – مثلاً – من الاستماع إلى الآية ١٣٦ من سورة البقرة: ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

بعض المسيحين يعلم هذه الحقيقة ولكن (أكثرهم) لا يعلمها.. ومن المرجح – إلى جانب أسباب أخرى – أن عدم العلم بهذه الحقيقة: أنشأ مساحة واسعة من سوء الفهم للإسلام. ولكن الذي لا يعلم، ليس حجة على من لا يعلم، بل العكس هو الصحيح.

ثم إن (الجهر) بحقيقة أن إيمان المسلم لا يصح إلا إذا آمن بنبوة المسيح عيسى بن مريم وبرسالته.. الجهر بهذه

الحقيقة واجب في كل حين: لا يجوز أن يمنع من الجهر بها: صدود الآخرين عن النبي محمد، ويتعين – في هذا السياق– طرح هذا السؤال: لماذا يجب الامتناع عن معاقبة الذين يتطاولون على مقام النبي محمد ويسبونه ويقذفونه: بمثل ما فعلوا ؟ والجواب هو: أن (المثلية) – هنا – تعني: التطاول على المسيح عيسى بن مريم وسبه وقذفه، وهذا – في شرع الإسلام – كفر يخرج المسلم من ملة الإسلام، إذ لا فرق بين من قذف المسيح وقذف محمداً أو استهزأ بأحدهما، ولا يعمد إلى التفريق بينهما إلا كافر بهما معاً، بل بالأنبياء والمرسلين كافة، بل بالله نفسه – جل ثناؤه –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

خلاصة السطور الآنفة هي: أن الالتزام العقدي بتلك الحقيقة هو (قاعدة التسامح الأخلاقي). فبقدر سعة المرء والأمة وصدرهما وروحهما لـ (الحق كله):يكون تسامحه،

ويكون تسامحها.

أنا متسامح.. وأنت متعصب.

لا، بل أنت متعصب.. وأنا المتسامح.

هذه كلمات أو عبارات لا يزال الأفراد والأمم يتبادلونها: مدحاً للذات بوصف التسامح، وذماً للآخرين بوصف التعصب.. ويغلب (الهوى) على الواصفين في الطرفين كليهما، في أكثر الناس والأحوال، والسبب هو: (غياب المقياس الصحيح) الضابط للوصف، المانع من الحيف.

فما المقياس الصحيح؟

إن أجلّ وأضبط مقياس لاستقامة البشر على ميزان العدل، وصحة منهجهم العقدي، وسلامة تفكيرهم، وسموهم الخلقي، هو: اتساع صدورهم وعقولهم ونفوسهم لـ (الحق كله)، وإجلال أهل الحق ومحبتهم عبر الزمان كله، والمكان كله.

وبمقتضى هذ المقياس – فحسب –: يوصف هذا الإنسان بأنه (متسامح)، وذلك بأنه (متعصب)، فالذي يتسع أفقه للحق – كله – دون أي نزعة انتقائية يميلها التعسف – ويتسع أفقه لحملة الحقيقة أنى كانوا، وحيث كانوا، هو (الإنسان

المتسامح): على الحقيقة، وفي الواقع.. و(مفهوم المخالفة: مفهوم)!.. ولذلك كان من عزائم الإسلام، ومن يقينياته التي كُلِّفها المسلمون: أن تتسع قلوبهم وعقولهم وأرواحهم لـ (الحق كله)، من خلال الزمان كله، والمكان كله: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾.

هؤلاء الرجال الخمسة الكبار، قادة الفكر البشري المستنير الحقيقيون: هم أولوا العزم من الرسل الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة: تعددت أماكنهم وأزمنتهم: في الميلاد والعيش والظروف والبعث والبلاغ، وانتشروا في الزمن البشري المتطاول: الممتد من نوح إلى عهد إبراهيم، وإلى عهد موسى، إلى عهد عيسى، إلى زمن محمد – صلى الله عليه وسلم –. وعلى الرغم من اختلاف الأمكنة، وتطاول الأزمنة، فإن الحق الذي به نطقوا، وإليه دعوا، إنما هو (حق واحد) كما ائتلق ذلك في الآية السابقة.. ويأتلق الآن ويرسخ ما يمكن تسميته (نَسَبَ الحق) النافذ والثابت والموصول في الزمان والمكان.

إن الانتماء الحقيقي يكون إلى الحق والخير وإلى حملتها

(دون التورط الجهول في منقصة التقليل من أهمية الانتساب إلى الآباء والجدود، والأوطان، إذ لا تعارض في منهج الإسلام بين الانتماءين) نحن لم نر إدريساً ولا نوحاً ولا موسى ولا عيسى ولا حوارييه ولا اليسع، ولكن جوانحنا تنطوي على محبتهم وإعزازهم.. لماذا ؟ لأنهم أناس طيبون صالحون كرام: عليّة نفوسهم، رفيعة أخلاقهم، ولأن الحقائق والمبادئ التي يحملونها جديرة بالانتماء إليها.. وإليهم.

وسيدنا عيسى بن مريم – صلى الله عليه وسلم –: رسول ونبي جليل.. ولقد مجّد الإسلام – كتاباً وسنة – المسيح عيسى بن مريم تمجيداً، وعظمه تعظيماً، وأعلى مقامه، وقد تولى نبي الإسلام محمد تقديمه إلى الأسرة البشرية تقديماً محباً أنيقاً بهياً سمحاً مشرقاً.

هذا هو مقام المسيح عيسى بن مريم، وهذه هي صورته في الكتاب والسنة: الإيمان به.. هو أحد أركان الإيمان في الإسلام..

نشهد أننا نؤمن بالمسيح عيسى بن مريم: نبياً رسولاً. ونشهد أننا نحبه، لأنه حبيب الله ومصطفاه، ولأنه رحمة كله، وسلام كله، ومحبة كله، ومبارك أينما كان، وبر بوالدته، وآية للناس صلى الله عليه وسلم في الأولين والآخرين.

❖ ❖ ❖

ولقد بشرنا سيدنا المسيح –صلى الله عليه وسلم– بمنظومة من القيم والتعاليم والمفاهيم والأخلاق،بشّر بها، وثابر على أن تنساب في ضمير الإنسان، وحياة المجتمع.. ويتعذر الآن استقراء تلك القيم جميعاً، ولكن يمكن إيراد نماذج منها وهي:

١–الرحمة..وهي الخاصية الأولى والأجلّ في شخصية المسيح في رسالته بنص القرآن: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. وكانت هذه الخاصية واضحة جداً في ذهنه – بداهة – ولذلك نفى التجبر– النقيض للرحمة – عن نفسه:﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.. وكان يقول: «طوبى للودعاء الرحماء: تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين، فتجدوا راحة لنفوسكم، لأن نيري هين وحملي خفيف».

٢– السلام.. ومما لا ريب فيه أن المسيح عيسى بن مريم كان داعية سلام. ولا عجب، فهو الإسلام كله: من الميلاد إلى البعث: بنص القرآن: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

٣– الإيمان الصحيح: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾.

الفصل الثالث

ويقدم أمه الصديقة مريم

﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ﴾

ويقدم أمه
الصديقة مريم

يحب المسلم الرسول ويصلي عليه كلما استشعر نعمة التوحيد وتذوق معنى العبادة، وتلا القرآن، ورفع رأسه بين الناس حراً عزيزاً، وجدَّ في العمل الصالح، وأحسن إلى الخَلْق، والتزم منهج الاعتدال في التفكير والقول والفعل والسلوك.. ففي هذه الأحوال كلها يملأ المسلم فؤاده وفمه بالصلاة على النبي الذي هداه إلى ذلك كله.

والحقيقة: أن البشرية كلها مدينة لهذا النبي الطيب الجليل، فهو الذي انتقل بها النقلة الكبرى:بإعلاء قيمة العقل..وتفجير طاقات التفكيروالنظر.. وتحرير الإرادة والضمير من أغلال الوثنية والاستبداد.. وإرساء معايير المساواة.. وتأصيل التعارف الإنساني بين الأمم والشعوب كافة.. وإقامة موازين العدل حتى مع الخصوم أنفسهم.. والاحتفاء والتسامي بقيمة التراث الإنساني المشترك..والدفاع عن الشخصيات الصالحة.. من كل الأعراف والبيئات: دفاع

حق واعتزاز وسماحة.

وهذا المقال كله: مدٌّ وبسط للنقطة الأخيرة.

فمن براهين صدق نبينا –(صلى الله عليه وسلم)–: أنه جاء بدين يدعو إلى (الإيمان بالحق كله)،بلا تبعيض، ولا استثناء،ولا إلغاء. وهذه قضية عقلانية منهجية أيضاً، فالحق لذاته لا يتجزأ ولا يتناقض سواء من حيث الجوهر، ومن حيث المصدر.

مريم نموذجاً:

قال قائل: إن للمسيح عيسى ابن مريم (صلى الله عليه وسلم) أخاً غير شقيق!! فسارعت مؤسسات دينية إسلامية إلى نقض هذه المقولة وردها، إذ إنها مقولة تجرح قدسية أو طهارة مريم الصديقة رضي الله عنها التي لم تتزوج قط.

أي مصدرشهد لمريم البتول بالعذرية والطهارة والعصمة من مس الرجال ؟ إنه القرآن الذي تنزل على محمد.. فلقد أرسى هذا الكتاب المبين (عقيدة يقينية) في مريم الطاهرة. عقيدة تُقرر الحق، وتنقض الباطل،والزور والبهتان.

إن من خصائص القرآن: الدفاع عن الشخصيات المؤمنة الصالحة، مهما يكن عرقها وأمتها وزمانها ومكانها ونوعها

(ذكر أو أنثى).. ولما كانت مريم من هذا النوع الرفيع من الناس، فقد تولى القرآن: تقديمها في أحسن صورة وسياق، والدفاع عنها بالحجة الغالبة الحافزة على محبتها وتكريمها:

١- فهي المحفوظة من الشيطان: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

٢- وهي المكرمة بكرامة الله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

٢- وهي المصطفاة على نساء العالمين: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

٣- وهي القانتة الساجدة الراكعة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

٥- وهي المبشَّرة بالمولود العظيم الوجيه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

٦- وهي المرفوع ذكرها في القرآن: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.. ولما كان القرآن يصدق بعضه

بعضاً، فإن مريم قد ذكرت في القرآن: ذكراً حسناً ٣٤ مرة.

٧- وهي آية للعالمين:

أ- ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

ب- ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾.

٨- وهي الصديقة: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾.

٩- وهي العذارء الطاهرة التي لم تتزوج - قط - ولم يمسسها بشر أبداً: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ

سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

هذه هي مريم العظيمة كما قدمها القرآن: طاهرة مطهرة، بريئة مبرأة، مصونة معصومة في حملها وولادتها، لم يمسسها بشر، وإنما جعل الله حملها وولادتها معجزة من عنده، وهو الغالب على أمره جل ثناؤه.

من الحريّ بالانتباه هنا: أن أهل الكتاب يحتجون بالقرآن على طهارة مريم. فقد استشهد كبير من كبراء الكنيسة القبطية في مصر – وهو يرد على من زعم أن للمسيح (عليه السلام) أخاً غير شقيق – استشهد بقول مريم – الذي سجله القرآن –: ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ولا شك أن هذا من العقائد المشتركة.

صحيح أن (بعض) اليهود خاضوا في عرض مريم وقالوا فيها قولاً شنيعاً. بيد أن القرآن أورد مقولتهم القبيحة هذه مورد الكفر: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾.

ونختم المقال بنقط نحسبها ذات دلالة ملائمة في هذا المقام: أن قولنا: أن للرسول محمد صلى الله عليه وسلم حقوقاً على البشرية كلها يستند إلى الحقائق الآتية:

١- أن بعثة النبي أتت تأسيساً نوعياً جديداً للوجود البشري، وهو تأسيس تمثل في احترام العقل، وتعيين المسؤولية الذاتية، والدفع إلى تسخير ما في السموات والأرض من أجل الإنسان، وإعلان وحدة الجنس البشري، إلى غير ذلك من المراقي المتنوعة.

ب-لو أن عقلاء علموا أن ثمة وثائق تاريخية تنصف تاريخهم الديني وشخصياتهم الصالحة وتدافع عنها، لكان من مقتضى عقلهم: الاحتفاء بهذه الوثائق.. وبناء عليه كان من مقتضى عقولهم: أن يحترموا القرآن، ومن أُنزل عليه، لأن القرآن هو الوثيقة الأعظم التي مجدت الشخصيات الدينية التي يؤمن بها مسيحيو العالم ويهوده.

جـ- وعلى التفصيل، فإن مريم – رضي الله عنها – ليست عربية، بيد أن القرآن الذي قوض العنصرية – فكرة وممارسة – مجّد مريم وزكاها، ذلك أن الكتاب الذي يحتفي بالمعايير الحقيقية للتفاضل بين الناس: معايير الإيمان

الحق.. والعمل الصالح.. والخلق الرفيع.

أليس من حق النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بدين يقدم الأنبياء والصديقين السابقين في أجمل صورة.. أليس من حقه: أن تقدره البشرية كلها، وتعرف له مكانته؟

الفصل الرابع
ويقدم أخاه موسى

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾

ويقدم أخاه موسى

محمد يصوم عاشوراء: ابتهاجاً بنجاة أخيه موسى وقومه من الاضطهاد.

ما ينبغي لأهل الكتاب، ما ينبغي ليهودي، ولا لمسيحي: أن يسيء إلى نبي اللّه محمد صلى اللّه عليه وسلم. ذلك أن كل إنسان له من العدل والوفاء والرقي والنبل (حظ) يحرص - بشوق - على الوفاء لمن صادق أباه وأكرمه وعرّف به ونوَّه بقدره وشأنه، أو يفعل ذلك مع من قدم للبشرية - بحميمة وإعجاب - رواد حضارته ومؤسسي وجوده المعنوي.

وما هو أصل (الوجود المعنوي) لليهود والمسيحيين؟.. أصله التوراة التي أنزلت على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزلنا على عيسى ابن مريم، وهما كتابان نشر نورهما في الناس والحياة: هذان النبيان الطيبان العظيمان: موسى وعيسى صلى اللّه عليهما وسلم.

فكيف كانت علاقة محمد بهما؟

قبل قليل كتبنا عن العلاقة الوثقى الرفيعة الحميمة بين محمد والمسيح حيث قدم نبينا: السيد المسيح في أبهى صورة، وأجمل وأبر وأحب أسلوب. ولذا فإن هذا المقال مخصص كله لعلاقة نبي الله محمد بن عبدالله بأخيه نبي الله موسى بن عمران.

في شهر المحرم من كل عام هجري يصوم مسلمون كثر: العاشر من هذا الشهر: إحياء لسنة نبيهم. وأصل هذه السنة أن نبينا صام العاشر من محرم: اقتداء بموسى وابتهاجاً بنجاته هو وقومه من الظلم والاضطهاد والعذاب. فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله:«ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرّق فرعون وقومه فصامه موسى شكراً. فقال رسول الله:«فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله وأمر بصيامه.

وقصة نجاة موسى وقومه من اضطهاد فرعوه وظلمه وبطشه إنما هي قصة مبهجة وسعيدة تنزّل بها الوحي على محمد، فهي قرآن يتلوه المسلمون جيلاً بعد جيل، ويشكرون

الله على هذه النعمة العظمى التي أسبغها على موسى وقومه:

أ- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

ب- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

إنه (مهرجان) النصر العظيم الذي ابتهج به نبي الإسلام، وصام يوم ذكراه، وحث المسلمين على صيامه: شكراً لله: جل ثناؤه.

وإنما وردت قصة النجاة ضمن سياقات قرآنية مستفيضة حملت إلينا النبأ الصادق عن موسى العظيم صلى الله عليه وسلم وهو نبأ استفاض في السنة كذلك:

أولاً: موسى العظيم في القرآن - على الإجمال والتفصيل -:

١- على الإجمال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا

﴿٥٢﴾ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًا﴾.

٢- على التفصيل:

أ- ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴿٧﴾ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴿٨﴾ وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴿٩﴾ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴿١٠﴾ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴿١١﴾ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴿١٢﴾ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿١٣﴾ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾.

ب- ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴿٢٤﴾ قال رب اشرح لي صدري ﴿٢٥﴾ ويسر لي أمري ﴿٢٦﴾ واحلل عقدة من لساني ﴿٢٧﴾ يفقهوا قولي ﴿٢٨﴾ واجعل لي وزيرا من أهلي ﴿٢٩﴾ هارون أخي ﴿٣٠﴾ اشدد به أزري ﴿٣١﴾ وأشركه في أمري ﴿٣٢﴾ كي نسبحك كثيرا ﴿٣٣﴾ ونذكرك كثيرا ﴿٣٤﴾ إنك كنت بنا بصيرا ﴿٣٥﴾ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾.

٣- ومن التفصيل - كذلك - التعريف القرآني العلمي الجميل بـ (التوراة). أي الكتاب الذي أنزل على موسى:

أ- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

ب- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ﴾.

جـ- ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾.

د- ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثانياً: موسى النبي العظيم على لسان أخيه نبي الله محمد:

١- جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إن رجلاً من الأنصار من أصحابك قد لطم وجهي، فجيئ بالرجل وقال له النبي: «لم لطمتَ وجهه» قال: يا رسول الله: إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. فقلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة فلطمته. فقال النبي: «لا تخيّروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري: أفاق قبلي، أو جوزي بصعقة الطور»؟

٢- قدّم النبي أخاه موسى في صورة مفعمة بفضيلة الحياء، فقال: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً».

٣- وأوذي النبي محمد من بعض الناس، فاستحضر شخصية أخيه موسى وقال «يرحم اللّٰه موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». فاقتدى نبينا بأخيه موسى في الصبر على الأذى: اهتداء بقول اللّٰه تعالى ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

٤- خرج النبي يوماً على الصحابة وقال: «عرضت عليّ الأمم، ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل: هذا موسى في قومه».

٥- وكان النبي يتحرى ذكر موسى في كل مناسبة لاحت. في حجة الوداع مر النبي بوادي الأزرق فقال: «أي واد هذا؟ قالوا: وادي الأزرق. فقال: «كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى اللّٰه عز وجل بالتلبية».

٦- وأخبر النبي بأن لموسى فضلاً عظيماً على الأمة الإسلامية وذلك حين اقترح على النبي: التخفيف في عدد الصلوات، فقد اتفقت الروايات كلها على أن اللّٰه تعالى حين فرض الصلاة على النبي وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، لقي موسى في السماء السابعة فقال له موسى: ارجع

إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وإن أمتك أضعف حالاً فلم يزل يتردد النبي بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه في كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة.. ومن هنا كثيراً ما يدعو العلماء وهم يذكرون هذا النصح الخبير من موسى فيقولون: «جزى الله عنا محمداً خيراً، وجزى الله عنا موسى خيراً».

هذا هو مقام نبي الله موسى بن عمران في الكتاب والسنة، وهو مقام جليل رفيع مهيب. ومن هنا كانت حماية موسى من الأذية: قاعدة لحماية نبينا وسائر الأنبياء منها. ومن هنا الكف عن إيذاء موسى والأنبياء جميعاً: من عزائم الإيمان بالله ومن ثمراته وبراهينه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وكان عند الله وجيهاً.. والوجيه – عند العرب وفي لغتهم – هو: العظيم القدر، الرفيع المنزلة، الشريف الخصال.

من أين عرفنا ذلك كله؟.. من القرآن الذي نزل على محمد، ومن أحاديث هذا النبي المحمد: المحب لموسى، المحيي لسنته، المنوه بذكره وشأنه.

ولذلك - ومثله معه - لا نعلم سبباً عقلياً ولا أخلاقياً - يجعل أحداً سوياً من الناس - ولا سيما من أهل الكتاب - يبغض نبي الله محمد أو يسيء إليه.. وما عساه أن يكون هذا السبب؟ أهو الإيمان بالله ومحبته والتمثل إليه؟ أهو الدعوة المتقدة الجذوة إلى تحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله؟.. أهو المناداة بوحدة الجنس البشري وبكرامته الأصلية؟.. أهو أُفقه الديني الذي اتسع للإيمان بالكتب والرسل التي سبقته؟.. أهو محبته الخير لكل إنسان، بل كل مخلوق.. هذه المحبة التي عبر عنها كل صباح بقوله:«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر»؟.. ما عساه أن يكون ذلك السبب؟... ألأن الله أرسله رحمة للعالمين؟.. ألأنه أطلق النهضة التنويرية الكبرى في العالم؟.. ألأنه أعلى قيمة العقل والعلم والمعرفة؟.. ألأنه طارد الخرافة والدجل والوهم؟.. ألأنه كافح الظلم والطغيان والباطل؟.. ألأنه جعل الرحمة بكلب عطشان سبيلاً إلى غفران الله لامرأة بغيّ.. ألأنه كان لطيفاً رقيقاً لين الجانب كثير التواضع والحياء؟ ألأنه كان وفياً يتذكر من أسدى إليه جميلاً ويتمنى أن يرده إليه ولو كان قد

مات على الشرك؟.. ألأنه كان يوفي بالعهود والمواثيق؟.. ألأنه كان يدفع السيئة بالحسنة ويعفو ويصفح الصفح الجميل (وهذا وصفه في التوراة)؟ ألأنه كان يحب الطهارة والنظافة والجمال ويقول: «إن الله جميل يحب الجمال»؟ ألأنه كان يتعوذ من الكآبة في المال والأهل والولد؟... ألأنه اجتمعت في شخصه مكارم الأخلاق ومجامعها وعزائمها كما وصفه الله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

عجباً!!. أهناك إنسان سوي التكوين يضيق برواء الورد وأريجه؟ وبإشراق الكمال وسموه؟.. وبسطوع النور؟.. وبنقاء العلم واستبحاره؟... وبرشد العقل؟ وبأناقة الضمير؟.. وبدقة التناغم بين القول الجميل والفعل الجميل؟.

الفصل الخامس
رياح وثمار من بستانه

«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله بن فعلم وعلم»

(١)
إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً

نشأ جدل أو ثارت ضجه حول (التعميم في الدعاء على المسيحيين أجمعين) بلا تمييز ولا استثناء.

ولقد نشأ هذا الجدل، أو تكهرب - بوجه خاص - بعد أحداث سبتمبر الكريهة. فمن تداعيات هذه الأحداث: أن المسلمين شعروا بأن ثمة حملة فكرية سياسية إعلامية غربية ضارية تستهدفهم جميعاً.

وبدافع من هذا الشعور أخذ أئمة مساجد ودعاة ووعاظ يدعون على النصارى كلهم بإطلاق.

هذه قضية تتطلب بذلك جهد فكري: منهجي موضوعي، من الناحية العلمية، وأمين وعادل، من الناحية الأخلاقية.. وهو جهد مركب من محاور ثلاثة:

أ- محور اجتناب (العدوان في الدعاء).

ب- محور (التفسير الصحيح للأحداث والمواقف).

جـ - محور (الاستغلال السياسي للدين).

العدوان في الدعاء وهل هناك عدوان في الدعاء؟

نعم، ولقد نص القرآن الكريم في الآية (٥٥) من (سورة الأعراف) على ذلك ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ويقول القرطبي: «يريد في الدعاء..والاعتداء في الدعاء على وجوه منها: الجهر الكثير والصياح، ومنها: أن يدعو الإنسان أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال، ونحو هذا من الشطط، ومنها: أن يدعو طالباً معصية، وغير ذلك».

ونضيف إن من وجوه الاعتداء في الدعاء أن تدعو على بريء مسالم غافل لم يظلمك، ولم يفكر في ظلمك، ولم يفرح بظلمك، ولا شك أن في النصارى أو المسيحين كثيرين لم يتورطوا في ظلم المسلمين.. والدعاء على هؤلاء عدوان من العدوان، بل إن الدعاء عليهم ظلم بيّن.. ولم يأذن الإسلام بأن يكون مجرد الخلاف في الدين رخصة في الاعتداء على المخالف، بل حرم ذلك تحريماً مطلقاً من حيث إن الظلم محرم بإطلاق.

حقاً: إن الدعاء مشروع، ولكن على الظالمين، وهو دعاء مشروع حتى لغير المسلمين، فدعوة المظلوم مستجابة، وإن

كان غير مسلم، ليس بينها وبين الله حجاب، وفي وسع أئمة المساجد والدعاة والوعاظ أن يقيدوا دعائهم أو يحصروه في الظالمين.

أولاً: لكي يجتنبوا ظلم الأبرياء المسالمين.

وثانياً: لأن الدعاء قربى إلى الله.. والقربى لا تكون بظلم.

ويتقوى هذا المعنى بمفاهيم أخرى معززة، وهي: أن من المسلمين من هو متزوج بمسيحية، فكيف يؤمّن مسلم على دعاء يشمل زوجته؟! وأن هناك مثقفين ومفكرين مسيحين لهم موقف من الإسلام والمسلمين أشرف وأنبل من مواقف كثيرين يحملون أسماء إسلامية.

وأن مئات الألوف من المسيحين في الغرب خرجوا في مظاهرات مؤيدة للمسلمين.. فكيف يصح الدعاء على هؤلاء في سياق الإطلاق في الدعاء؟ إن ا لإطلاق - ها هنا - معصية دينية وغباوة سياسية.

وما هو أعظم من ذلك أن التعميم في الدعاء: تصادم مع نص قرآني ورد في آخر سور القرآن نزولاً - وهي سورة «المائدة» والنص هو: ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ**

قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ﴾. إن هذا النص مانع من التعميم والإطلاق في الدعاء.. وقد يقول قائل: إن ذلك وضع قديم قد انتهى.

والرد هو: أولاً، أن هذا القائل قد علا في الأرض، وادعى ما ليس له: ادعى أنه قادر على أن ينسخ القرآن الكريم بمزاعم من عنده.

ثانياً: أن الواقع التاريخي، والواقع الراهن، يصدقان الحقيقة القرآنية، فأكثر الناس انعطافاً نحو الإسلام، وتفهماً له، ودخولاً فيه، هم النصارى أو المسيحيون.

ولا ينكر ولا ينفى (العامل الديني) في تفسر الأحداث والمواقف والصراعات، بيد أن الغلو في أي عامل من العوامل بالتضخيم والتهويل من شأنه أن يصادر الرؤية السديدة، والفهم السليم.

مثلاً: إذا قيل إن العامل الديني هو الذي يفسر كل صراع في العام فكيف تُفسر الحرب بين أثيوبيا وإريتريا مع أن ديانة المتحاربين واحدة وهي المسيحية؟ وكيف تفسر الحرب في منطقة البحيرات الكبرى وهي حرب بين قبائل يجمعها - في الغالب - الدين المسيحي؟ وكيف يُفسر الصراح المسلح

الذي نشب بين الصرب الأرثوذوكس والكروات الكاثوليك وهم جميعاً مسيحيون؟ وكيف يُسر العنف الدموي الذي تفجر واستمر عقوداً متتابعة بين الآيرلنديين (الكاثوليك) والآيرلنديين (البروتستانتت) وهم جميعاً مسيحيون؟.. ومن قبل قاتل هتلر وموسوليني المسيحيان قومهم المسيحيين على امتداد القارة الأوروبية كلها.. وكانت الحرب العالمية قتالاً ضارياً بين أقوام جمعهم الدين المسيحي.. ومن قبل قاتل الأمريكيوون الإنجليز إبان حرب الاستقلال في حين أن الطرفين مسيحيان.. وقبل ذلك شهدت أوروبا حروباً طاحنة مزمنة مزقت أقطارها شر ممزق، على الرغم من انتمائها إلى دين واحد هو المسيحية.

وإذا نظرنا إلى أحوال العرب والمسلمين في العقود الأخيرة، نجد الظاهرة ذاتها تقريباً، مع تحوير نسبي في الشكل والإخراج اقتضته ظروف البيئة، فقد شهدت عقود أخيرة صراعاً عربياً واسعاً وحاداً وطويلاً ومريراً على كل شيء تقريباً، وهو صراع له موضوعاته وأدواته... فمن موضوعاته: الاقتصاد: اشتراكي هو أم حر؟ والقومية: أعروبة طبيعية أصيلة أم هي فلسفة بديل للإسلام؟.. وطبيعة

النظام: أيهمما آصل وأنفع؟ النظم المحافظة التي تنمو في هدوء وتدرج، أم النظم الثورية التي تنزع إلى التغيير بالعنف والانقلاب والقفز؟ أما أدوات الصراع فمنها: التخريب السياسي، وقد سجل ٢٠ في المائة من مجمل عوامل وأدوات الصراع.. ومن هذه الأدوات: الدعاية السوداء، أو الحروب الباردة التي بلغت ٤٩ في المائة من مجمل أدوات الصراع.

ذلك كله قد حصل، مع أن الدين الغالب على الجميع هو الإسلام.

إن هذه الشواهد - ونظائرها كثيرة جداً في تاريخ البشرية وواقعها - خليقة بالاعتبار النابه البصير اللماح، الذي يعيد النظر في فلسفات واتجاهات تفسير الاحداث والمواقف والصراعات البشرية، ابتغاء الوصول إلى تفسير سديد تنبنى عليه مواقف أصح وعلاقات أرشد.

إذا كان من المريح للذات تصور العالم في صورة واحدة، ذات لون واحد وسبب واحد، فإن هذه الراحة اللذيذة لا تقوم إلا على أنقاض النظرة الموضوعية، إذ إن تلك الراحة محض رغبة ساذجة في تصور العالم، ليس كما هو بل كما يهواه المرء ويتمناه!! وكأي من أناس ومن أنظمة تصوروا العالم وفق صورة

واحدة، وعللوا ما يجري بسبب واحد - نزولاً على أحلامهم وأوهامهم - فصعقهم الواقع فهلكوا أو تراجعوا إلى مكان بينه وبين حقيقة ما يدور في العالم أمد بعيد. ثم إن هذه الراحة وهمية لا حقيقة. وهمية إلى درجة أنها تتضمن نقيضها. فتصور العالم في صورة واحدة، ذات لون واحد، يشقى أصحابه بمتاعب ومشاق لا آخر لها، في أثناء التعامل الواقعي مع العالم، ومن هذه المشاق: الصدمة، والاضطراب، والحيرة، وعسر الاتصال، وحرج التكلم بلغة لا يفهمها، ولا يعقلها أحد.

إن تفسير الأحداث والوقائع والمواقف الإقليمية والعالمية لا يصح - قط - بسبب أو عامل واحد: لا يصح منهجياً، لأنه تجاهل لعوامل موضوعية أخرى، ليس من المعرفة الاستقرائية الصحيحة تجاهلها، ولا يصح عملياً لأن ما ينبني عليه من عمل يكون قد انبنى على غير أساس، أو على أساس هار.

ولنعد إلى القضية المحورية لنقول: إن العدوان في الدعاء قضية يجب نقدها بوضوح، فالقرائن والدلائل تشير إلى أن هذا البلاء عام ذو جذور... وما كان هذا شأنه، يتطلب بسطاً في القول المناوئ، وتأصيلاً للمنهج الناقد الناقض.

وفي السطور الآتية: منظومة حقائق ومفاهيم تستجيب

لهذين المطلبين:

١- مضى القول بأن (تعميم الدعاء على المسيحيين أجمعين) ينطوي على ظلم محرم بواح.. ومن البراهين على استبشاع المنهج لهذه المظلمة:

أ- مخالفة منهج القرآن في التزام (العدل في القول)... ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ﴾ فهذا أمر محكم بالعدل في القول كله.. والدعاء قول من القول، فإذا جافى العدل، وباشر الظلم: عصى صاحبه الله، وعارض منهج القرآن، فضلَّ.

ب- مخالفة منهج القرآن في نفي المساواة في النظر والحكم على أهل الكتاب، فالقرآن يقول عن أهل الكتاب.. ﴿لَيْسُواْ سَوَاء﴾ وبنفي التساوي يتقرر - عقلاً ونقلاً - أن هناك تفاوتاً.. كمياً ونوعياً في أهل الكتاب... فمنهم المسالم الغافل... ومنهم المحايد.. ومنهم الظالم.. ومنهم الأقرب إلى الإسلام بفطرته، أو بقوة بحثه عن الحق، وتحريه له.. ولما كان القرآن كتاب عدالة مطلقة مع الناس كافة، وكتاب الدقة المتناهية في العبارة، فإنه انتظم جملة ﴿لَيْسُواْ سَوَاء﴾ ليميز الظالمين من غير الظالمين، ولكي يتربى المسلمون على هذا المنهج في النظرة إلى الناس، والتعامل مع أهل الكتاب

ولكي يعلموا أن العالم الإنساني ليس صورة واحدة ذات جانبين اثنين فحسب: أبيض وأسود... وإنما هو عالم متنوع الألوان، متفاوت المسافات المعنوية: قرباً وبعداً، ولكي يدركوا أن التعميم - من ثم- خطأ منهجي، وخطيئة أخلاقية، ولكي يعصموا أنفسهم من التورط في التناقض مع الواقع.. فالمسلمون يرون في الواقع: شرائح من أهل الكتاب فيهم إنصاف وعدالة، في التجارة، أو التعامل العام، أو التعليم... مثلاً: هناك عشرات الألوف من مسلمي اليوم تلقوا تعليمهم في الاقتصاد.. والهندسة والطب...والإدارة... وشتى العلوم الأخرى، على أيدي أساتذة من أهل الكتاب، فما غشوهم في بحث، ولا استكبروا عليهم في علاقة، ولا جاروا عليهم في تقدير علمي.. وهذا واقع يؤدي إنكاره إلى فتنة نفسية وعقلية.

ولكي لا يتعرض المسلمون لهذه الفتنة، عصمهم القرآن بالتمييز الحق بين الظالمين وغير الظالمين من أهل الكتاب.. ثم إن هذا الواقع التعليمي والعلمي الحسن مانع من الدعاء على مثل هذه الشرائح التي قدمت للمسلمين خيراً... لقد قَدَّم المُطْعِم بن عدي يداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم

مَرْجعَه من الطائف، إذ أدخله في جواره، في ساعة العسرة.. وحين وقعت غزوة بدر، وأُسر أكابر المشركين، مر الرسول على هؤلاء الأسرى وقال:«لو كان المُطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء لتركتهم له». لم يَدْعُ الرسول على المطعم (وقد مات مشركاً)، وإنما تذكر مكرمته وفضله وتمنى أن يكرمه بتحرير هؤلاء الأسرى من أجله، أي دون فداء.

٢- من هذه الحقائق والمفاهيم:(مفهوم الرحمة).. إن القرآن يجلي وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم ويحدد مهمته ورسالته والغاية العظمى من ابتعاثه في هذه الآية المحكمة: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾.

وليس من هذه الرحمة العالية العامة: الاعتداء في الدعاء على الآخرين. كيف؟

إن مما اعتاده بعض المسلمين في الدعاء: لعن الآخرين بطريقة ناطقة بالاحتراف والإدمان... وهذا مما يضاد الرحمة العامة التي غمرت العالم بمقدم النبي المحمد صلى الله عليه وسلم، فاللعن هو: الطرد من رحمة الله.. ومن التناقض الحاد، والتَّألّي على الله، أن يُجعل الدين الذي جاء ليفتح رحمة الله الواسعة على الناس: ذريعة لطرد الناس من

رحمة اللّه!!.

وهذا المفهوم يأتلق في هذا الحديث النبوي الأصل. فقد قيل لرسول اللّه ادع اللّه على المشركين، والعنهم. فقال:«إنما بعثت رحمة، ولم أبعث لعاناً»، وهـذه المقابلة - بين اللعن والرحمة - في كلام من أوتي جوامع الكلم - تبين حقيقة: أن مَنْ وظيفته الرحمة العامة، لا يطرد الناس من الرحمة العامة: رحمة اللّه الرحمن الرحيم جل ثناؤه، ولا يتناقض مع جوهر رسالته، وحقيقة مهمته، حاشاه.

من هنا، لم تنحصر (عزيمة) اجتناب اللعن في الحديث الآنـف، بل هي (منهج كامل) أرسـاه النبي في فيض من أحاديثه الشريفة..ومن هذه الأحاديث:

أ- «ليس المؤمن بطعّان ولا لعّان ولا فاحش ولا بذيء».

ب- « لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة».

جـ- «لا يكون المؤمن لعاناً».

جـ- «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً».

د- «لا تلاعنوا بلعنة اللّه».

و- بل إن النبي الرحمة نهى عن (لعن الـريح!).. فعن عبداللّه بن عباس: أن رجلاً نازعته الريحُ رداءهَ فلعنها،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تلعنها، فإنها مأمورة مسخرة». كما نهى عن لعن الدابة، وسب الديك.. وفي هذا الحديث أكثر من معنى عميق جميل.. فيه معنى: أن الاعتداء في الدعاء محرم حتى على الطاقة الكونية والدواب، والدواجن.. وفيه معنى: صيانة اللسان من التعود على مثل هذه الألفاظ الظالمة الجارحة المتدنية، فالتعود الخاطئ ينشيء عاهات دائمة.

ز- والنبي الذي تحدث بهذه الأحاديث، كان هو نفسه قمة الالتزام بها، يقول أنس بن مالك:«لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سباباً، ولا فاحشاً، ولا لاعناً». فإذا رأيت مسلماً - داعية أو غيره - سباباً فاحشاً لاعناً، فاعلم أنه قد تجافى عن السنة، وإن صلى، وصام وخطب، وحاضر، ودعا. وزعم أنه مسلم.. ولقد قيل لصحابي - اختل في يده ميزان المساواة لحظة - «إنك امرؤ فيك جاهلية».

نعم.. إن العامة تكثر من اللعن في حياتها اليومية، ليس في حالات الغضب فقط، وإنما في حالات المزاح والتظرف، فيقول أحدهما لصاحبه - وقد أعجبه صنيعه (يا ملعون!!).. نعم، يقع هذا، بيد أن ما يميز الداعية أو الخطيب أو الواعظ

عن العامة هو: سداد تفكيره ورقي عبارته، وعلمه بمقاصد الإسلام، وموافقته للسنَّة، ورحمته العميقة بالخلق، وتقديره لخطورة اللعن.

٣- إذا قدر للبشرية أن تنهض نهضة أوفر عافية، وأصح بنية، وأروح نفساً، وأصدق علاقات، فإن (الاستعمال الأرقى للكلمة) قاعدة ضرورية من قواعد النهضة المرجوة، فأي قيمة لإنسان يجمّل صورة لحمه ودمه بجمال المدنية، فإذا تكلم خرجت من فمه قذائف السب واللعن؟.. ولماكانت بضاعة الخطباء والدعاة هي (الكلمة) فإنهم مندوبون إلى الإسهام الفاعل القدوة في النهضة البشرية المطلوبة من خلال الخطاب الراقي الأنيق الرفيع اللطيف المهذب المفعم بروح الإيلاف.. ولقد كان النبي أسوة في هذا التسامي بالكلمة معنى ولفظاً.

(٢)
الجمال والحب
في كلام النبي وفعله

هو بشر من البشر.. هذه حقيقة لا ريب: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.. ولكن لقياه ومساواته مع البشرية في هذه الصفة إذ تؤكد حقيقتين قاطعتين هما:

أ- الحقيقة الجينية أو (البيولوجية) لسائر البشر من دون استثناء.

ب- حقيقة «نفي الألوهية» عن البشر، وعن كل مخلوق آخر. فالإله واحد لا شريك له في إلهيته.

المساواة في البشرية إذ تؤكد هاتين الحقيقتين، لا تنتقص -قط- من (المقام الخاص الرفيع) لخاتم الأنبياء والمرسلين: سيدنا محمد صلى الله عليه واله وسلم.

فمع التقرير والاحتفاظ العقدي بـ «الفروق» بين مقام الألوهية ومقام النبوة يجب أن يأخذ النبي المحمد حقه الكامل من التمجيد والتوقير والإجلال: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن

تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ومن (الشكلية الفقهية) الجافة، أو من التنطع الفقهي المحنط: أن يقال: إن الصلاة على النبي واجبة في العمر مرة واحدة:«وفرض عليه أن يأتي بها مرة في دهره».

وعلى كثرة ما كتبه الكاتبون عن النبي، فإن نهر خصائصه ومكارمه الرائق الحلو لا يزال يتدفق بالمزيد من المكارم والمعالي والكمالات: فيضاً غدقاً، يرتوي منه المؤمنون به، ويرتشف منه كل إنسان ذي همة، وذي تطلع إلى (النبل الإنساني الوهاج).

ولنغترف غرفتين اثنتين من نهره العذب وهما: الجمال والحب في كلامه وفعله صلى الله عليه وآله وسلم:

أولاً: الجمال

لقد بعث النبي بتعاليم ومقاصد موفورة.. منها: مقصد الجمال، أي بعث لتعليم الناس «الجمال» وتجديد إحساسهم ووعيهم به.. فالله جل ثناؤه - جميل - والقرآن جميل.. والكون جميل.. وإذ بعث النبي لتعليم الناس: هذا الجمال الشامل، فإنه مما لا ريب فيه، أن يكون له من ذلك أوفى

الحظوظ... وقد كان:

١- جمال (التبسم).. نعم.. التبسم نوع من أنواع الجمال الراقي، هي لغة (إنسانية عالمية) بمعنى أننا إذا رأينا - في التلفزيون مثلاً - إنساناً كورياً وألمانياً أو سنغالياً أو أمريكياً، أو أي إنسان من أي جنس، إذا رأيناه يبتسم نفهم أنه يبتسم، بما في هذا الإبتسام من إيحاء بالانشراح والغبطة والود الإنساني، وهذه صورة جميلة نقيض لصورة الاكتئاب والتجهم والعبوس.

ولذا كان من أهم ما يتدرب عليه المشتغلون بالعلاقات العامة هو: ابتسم.. كيف تبتسم؟ كيف تستديم الابتسامة؟... ويقول علماء اللغة: التبسم مبادئ الضحك وانبساط في الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور.

التبسم - من ثم - جمال من الجمال.. ولقد كان النبي متصفاً بالتبسم سائر يومه. وسائر حياته. فقد كان أكثر الناس تبسماً، فعن جرير قال: ما حجبني رسول الله منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي.. والنبي وهو يتحقق بجمال التبسم، فإنه يدعو إليه، ويغري به فيقول: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».. ويقول «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو

أن تلقى أخاك بوجه طليق»: وجه منبسط باسم مريح.

٢- جمال الزينة الظاهرة.. كان النبيّ يلبس أجمل ما يجد، وكان يتجمل للقاء الوفود: بما يليق به وبهم، أي يلبس ما يناسب مقامات الوفود وأعرافهم وكان يحب الطيب. تقول عائشة:«كنت أطيب النبي بأطيب ما يجد».. وكان يمنع من أكل ثوماً أو بصلاً من دخول المسجد.. ويدعو إلى الجمال - بصفة عامة - بحسبانه (محبوباً) من محبوبات اللّه فيقول:«إن اللّه جميل يحب الجمال».

٣- (جمال الرفق) في السلوك والفعل والكلام.. يقول صلى اللّه عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه».

فالرفق (زينة)، أي جمال، في حين أن العنف قبح دميم، وقد كان النبي رفيقاً جميلاً في أمره كله، ولذا أمر بالرفق في الأمر كله: خاصه وعامه.

٤- (جمال اللطف):

أ- كان يخفف الصلاة إذا سمع بكاء طفل: تقديراً لقلق أمّه عليه.

ب- وكان يوقف زحف الجيش: اهتماماً بأمر عصفورة

فجعت في أولادها حين أخذ بعض الجند هؤلاء العصافير الصغار ولم يستأنف الجيش تحركه حتى عادت العصافير إلى أمها.

جـ- وكان لا يواجه الناس بالعتاب العيني المباشر. بل يقول: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه».. ويقول ابن حجر - في الفتح - (باب من لم يواجه الناس بالعتاب)، أي حياء منهم.

د- وكان يلاطف الأطفال ويداعبهم، قال أنس: إن كان النبي ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟».. (النغير نوع من العصافير).

هـ- وكان يقر الترويح في بيته ويشجع عليه. قالت عائشة: كنت ألعب بالبنات (باللعب) عند النبي، وكان لي صواحب يلعبن معني. فكان رسول الله إذا دخل ينقمعن منه، فيسربهن إلي فيلعبن معي».

و- وكان يقول: «لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي».. يقول ابن حجر - في الفتح -: «قال الخطابي: لقست وخبثت بمعنى واحد، وإنما كره النبي من ذلك اسم الخبث فاختار اللفظة السالمة من ذلك، وكان من سنته تبديل

الاسم القبيح بالحسن، ويؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة».. والشاهد: إن من اللطف في التعامل (مع النفس): ألا يقول المرء: خبثت نفسي!!

ز- ومن جمال اللطف: التفنن في إكرام الزوجة، فقد كان النبي يضع ركبته لتضع عليها زوجه صفية رجلها لكي تصعد إلى الناقة وتستوي عليها.

ح- وكان يبشر بـ «لطف» الله بعباده فيقول: «لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه. فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

ثانياً: الحب.. توشك كلمات أصيلة جليلة: أن تُهجر أو تُبتذل، من هذه الكلمات التي يخشى هجرانها أو سوء استعمالها: كلمة (حب).. والحقيقة: أن (الحب) أصل في الدين، وأصل العلاقات العظيمة المتناهية في السمو والكمال.

فالحب: أصل العلاقة بالله، فالله يحب التوابين ويحب المتطهرين: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ ويحب الصابرين.. ويحب المحسنين.. ويحب المتوكلين.. ويحب المقسطين.

والإيمـان هو غرس الله المـزدان بالحب في قلب المؤمن ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

من هنا، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم: داعية حب بكلامه وفعله.. فقد قال:

١- «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

٢- «يا معاذ والله أني لأحبك».

٣-«والـذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

٤- «قيل يـا رسـول الله: مـن أحـب النـاس إليـك؟ قـال: عائشة.. قيل من الرجال؟ قال: «أبوها».

٥- ومن دعائه المحب الأواب:«اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ارزقني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب».

في حديث واحـد: تكررت كلمة حب: سبع مـرات. ولهذا

دلالة ساطعة وهي: أن الحب سيد القيم وأعظم العلاقات.

٦- وفي العلاقة الوفية بالمكان. يقول النبي: «أحد جبل يحبنا ونحبه».

ليجدد أتباع محمد والناس جميعاً إحساسهم ويقينهم بالجمال الديني والكوني، وبالحب الذي هو أصل الأصول في العلاقات الرشيدة الحميمة المضيئة فبدون الجمال والحب: لا يصح تدين.

ولا تصلح دنيا.. وهل تصلح هذه، أو يصلح ذاك بالقبح والكراهية؟

(٣)
محبة الخير والسعادة للإنسانية كلها

خلاصة الإسلام ومجامع أمره: (الخلق الثابت الرفيع) الثابت الذي لا يتقلب، والرفيع الذي لا يتدنى.. وليست العقيدة ولا العمل ولا العبادة ولا القضاء.. و..و.. إلا طرائق وذرائع ومعارج متعددة متنوعة إلى (الخلق الثابت الرفيع)... مثلاً الحكمة العليا من الصيام؟... هي (الخلق السامي)... وهذا هو البرهان المبين من كلام النبي:

أ- «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

ب- «ليس الصيام من الأكل والشرب: إنما الصيام من اللغو، والرفث، فإن سَابَّك أحد، أو جهل عليك، فقل: إني صائم، إني صائم».

لهذا، يلزم أن تكون قضية الخلق (حاضرة) في كل شأن ذي علاقة بالإنسان، ذلك أن مثل هذه الشؤون حين تناقش بمعزل عن الخلق، تبدو وكأنها تستدبر الهدف، وتطرح

الغاية وراء ظهرها، وتجرد الموضوع من معناه وجدواه، فإذا هو شكل بلا مضمون، وطلاء بلا حقيقة.

ضربت أعاصير كاترينا وريتا عدداً من الولايات المتحدة الأمريكية.. ولقد خاض الناس في تفسيرات كثيرة -دينية ودنيوية- تنزع إلى تعليل ما حدث.. ومن حق الناس: أن يسألوا عند كل حدث كوني أو بشري: لماذا؟.. فالإنسان بطبعه متشوق مستطلع تواق. وليس من حق أحد أن يصادر هذه الخصائص الإنسانية. وإذا كان من حق الناس أن يسألوا فمن الواجب العلمي والأخلاقي: الاجتهاد في تقديم جواب صحيح.

إن (الشماتة) لم تكن جواباً صحيحاً، ولا تفسيراً سليماً، ولا سلوكاً أخلاقياً قويماً تجاه تلك المصائب.

١- إن الأصل هو (محبة الخير والسعادة) للناس: جميع الناس، وإلا لما تنزلت الكتب، وبعثت الرسل؟.. إن الله ليس في حاجة إلى الناس، فتأكد - من ثم - أن الدين هو لخير الناس وسعادتهم ورحمتهم وإزالة الشقوة عنهم... ومما لا ريب فيه أن الشماتة بهم: لكرب نزل بهم، سلوك متناقض مع هذا الأصل أو المقصد الديني العظيم.

٢- كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يستقبل يومه بهذا

الدعاء الأواب الرباني الإنساني اللطيف: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك فلك الحمد ولك الشكر..» إن هذا النبي اللطيف الرؤوف الرحيم الذي اتسع قلبه للبشرية كلها: يشكر ربه بالنيابة عن كل الناس – وكل مخلوق – على كل نعمة أسبغها الله على كل إنسان، وكل مخلوق.. فإن تعبير (أو بأحد من خلقك): ينتظم جميع الناس، وهو المقصود الأول... نعم. جميع الناس: مسلمهم وكافرهم، فالله رب الناس أجمعين، لا رب المسلمين وحدهم. ولكل إنسان حظ من الربوبية في الإيجاد والإمداد والإنعام.. والنبي هو أبلغ البلغاء، بلا ريب، وحين يقول (أو بأحد من خلقك)، فإنه يقصد المفهوم الإنساني العام بالضبط والتحديد... وشكر الله على النعم التي يزجيها للناس كافة، إنما هو تعبير صدوق عن محبة الخير والعافية والسعادة للبشرية كلها.. والنبي الذي يشكر الله على كل نعمة نالها إنسان: أتراه يشمت بمن نزل به ضر وكرب من الناس؟ لا.. لا .. مائة تريليون مرة، فقلب: هذا صفاؤه، وهذه رحمته لا يتسع للتشفى والشماتة.. يضم إلى ذلك معنى فلسفي جد عميق وهو: أن الفرحة بكل نعمة يسبغها الله على أي إنسان: مقترنة بما يضادها في الشعور والتصور والقصد وهو: كراهية

أن يحيق بالناس كرب أو بلاء أو تعاسة، وليست تجتمع الرحمة الغامرة، والقسوة الشامتة في قلب واحد.

٣- وبمناسبة الرحمة: لنجلس إلى النبي، ولنستمع إليه وهو يقول «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».. يقول ابن بطال في شرح هذا الحديث - كما في فتح الباري -: «فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر والبهائم: المملوك منها وغير المملوك».. ومن المقطوع به: أن الرحمة بالناس، والشماتة بهم (وهي الفرحة بأحزان الآخرين): نقيضان لا يجتمعان.

٤- إن نجدة الناس وإنقاذهم: من العزائم الأخلاقية الإنسانية في منهج الإسلام.. ويستحيل أن يباشر الشامت هذه الأخلاق الوضيئة النافعة الرفيعة، لأن منطقه وموقفه هما: إذا نزل بغير المسلم كرب فلا تفرج عنه، بل انتظر حتى يهلك لتشمت فيه، وإذا أصاب غير المسلم مرض فلا تعالجه، بل انتظر حتى يزداد مرضاً لكي يتسنى لك التمتع بالشماتة فيه.. وإذا كنت سباحاً أو غطاساً ورأيت غير مسلم يغرق، فلا تنجده أو تنقذه، بل أتركه يغرق لكي تشمت فيه.. وإذا رأيت مسكيناً أو يتيماً قصمت ظهره الحاجة فلا تقدم له عوناً، بل تسلى برؤية حاله:

على سبيل الشماتة.. وهذا كله تنكيس لدلالة آيات النجدة والعون في القرآن الكريم، ومنها - مثلاً -آية : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ .

٥- نعلم من القرآن:أن الشماتة أو الفرحة بمصائب الآخرين هي من أخلاق غير الأسوياء من غير المسلمين: أولئك الذين اعتلت نفوسهم واختلت مقاييسهم فطفقوا يحترفون الابتهاج بمصائب الآخرين: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ .

فكيف يكون المسلمون أرقى أخلاقياً من غير الأسوياء هؤلاء إذا هم قلدوهم في الشعور الغريب المعيب: شعور الفرحة بمصائب الآخرين؟.. وشعور الاكتئاب بسبب نعمة أسداها الله إلى آخرين؟

٦- في الشماتة - معنى خبيث من معاني الحسد.. يقول أبو حامد الغزالي: «وهذا أشد أبواب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه: أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد.. والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز عن أن يتشفى

بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان«!!». وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدُوَّة بَلِيَّة فرح بها، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده».

ومن المعلوم في دين الإسلام - بالضرورة - أن الحسد محرم: بواعثه وصوره ومقاصده.. ولو لم يكن في الشماتة إلا معنى الحسد: لوجب على المسلم التحرر والتطهر منها: في الشعور واللفظ.

٧- للدعوة إلى الإسلام (مداخل ومفاتح): نفسية وخلقية، في مقدمتها: اللين واللطف والشعور الإنساني النبيل الراقي، والكلمة المبشرة الواعدة، والتبسم والبشاشة، ودفء العاطفة، والاكتراث الجم بهموم الناس ومشكلاتهم والتفاعل الصادق معها.. والشامت محروم - قطعاً- من هذه المحامد والمكارم والمراقي، فهو لذلك لا يستطيع أن يدعو إلى الله، لأنه - في حقيقة الأمر - يصد عن سبيل الله بسد تلك المداخل والمفاتح: بغلظة حسه وشعوره.

٨- حكى النبي صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، شيئاً من ذكرياته المريرة في مكة المكرمة،

فقال لها: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذا عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فإن شئت أن أطبقت عليهم الأخشبين (جبلين عظيمين بمكة المكرمة)، فقال النبي: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

لقد جاء النبي: النصر الكوني وهو في ساعة العسرة.. وقد كانت فرصة للانتقام من مضطهديه وظالميه.. كان المتوقع - والظروف هذه - أن يتمنى لهؤلاء الشر والهلاك لكي يشمت بهم بعد أن يحيق بهم الدمار، بيد أن صاحب الخلق العظيم الذي جاء لحياة الناس وسعادتهم: أبى أن يباد مناوئوه، وترفع عن أن يراهم هلكى، وعن أن يشمت بهم وهم هالكون، لأن (رحمة العالمين) لا يعرف إلا الرحمة: على كل حال.

٩- أُمر المسلمون بالخطاب الجميل الحسن إلى الآخرين.

أ- ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .
ب- ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .
جـ- ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ .

ومن المؤكد: أن الشماتة ليست من القول الحسن الجميل الذي ألزمهم الإسلام به في التعامل مع الناس.

١٠- حرم الإسلام الفرحة بأذية الغير، وإن كان هذا الغير ليس إنساناً، أي حيواناً، فلا يجوز في دين الإسلام: الابتهاج بأحزان الثيران والكلاب والديكة وهي تتهاوش وتتصارع وتتألم، فهل يحرم الإسلام الفرحة بأذية الحيوان ويقر الفرحة بما ينزل بالناس من أذى وكرب وكوارث وأعاصير وآلام؟!

١١- أرقى مقامات التوحيد: اثنان: عبادة الله وحده لا شريك له.. والإحسان إلى خلقه - الناس وغيرهم - ومحبة الخير والسعادة للإنسانية كلها، والشماتة ليست إحساناً إلى الخلق، بل هي إساءة إليهم، فهي - من ثم - سقوط شنيع عن مقام عال من مقامات التوحيد والإيمان.. وللربط التكاملي بين المقامين: اقترنت تقوى الله «اتق الله حيثما كنت» بالإحسان إلى الناس «وخالق الناس بخلق حسن».. فالمقامان وردا في سياق حديث نبوي واحد حدّث به النبي المحب.

(٤)
المعراج إلى اللّه وجنَّته بألف طريق

هذه رسالة من قارئ مسيحي عاقل فاضل، يعلق فيه على مقال كتبته عن (وجوب الشكر الصادق) لغير المسلمين إذا عملوا عملاً أو وقفوا موقفاً أو قالوا كلاماً يستوجب الشكر.. وقد أبدى بهجته بأن يكون في الإسلام هذا القدر من العدل والتسامح والنبل.. ثم طرح إشكالاً (وهذا هو موضع الشاهد). فقال: «لدي إشكالية يصعب أن أستوعبها وهي موضوع بلوغ الجنة، فقد علموني في التعليم المسيحي أن علينا أن نصلي ونصوم ونعمل الخير، وألا نسرق ولا نقتل ولا نزني، وأن نحب أعداءنا، وأن ذلك هو طريق الفوز بالجنة، فكيف يمكن أن يكون قتل الناس الأبرياء: أقصر الطرق للوصول إلى الجنة»؟.. وهو يشير بذلك - بداهة -- إلى أعمال العنف التي يمارسها مسلمونك مدعين بأنها (جهاد في سبيل الله)، وبأن هذا الجهد هو أقرب الطرق، وأسرع المعارج إلى الجنة.

ونكتب سطوراً مختصرة عن (مفهوم) الجهاد، ثم ننفذ إلى

صلب الموضوع: مفردين له المساحة الأوفى من المقال: ابتغاء البسط والإشباع.. موضوع: أن للجنة (ألف طريق) ويزيد.

إن الجهاد في الإسلام (حق).. ولن نعتذر عنه لأنه الحق لا يعتذر عنه.. هو حق لأنه (دفاع) مشروع عن النفس والدين والوطن وسائر مقومات الشعب والأمة والدولة.. وهو بهذا المفهوم (حق يتساوى فيه المسلمون مع سائر الأمم)- فبناء على هذا الحق القانوني والسياسي العام: تنص دساتير الدول كافة على أن رأس الدولة يجب أن يكون في مقدمة وظائفه ومسؤولياته: الدفاع عن الدولة التي يرأسها ضد كل عدوان عليها.. الأخرون يسمون هذا الحق (دفاعاً).. لهم ذلك وهم أحرار في التسمية... أما الإسلام فيسميه (جهاداً).. وله ذلك أيضاً بموجب (حق التسميات)، وكما أن لكل أمة شرعتها ومنهاجها، فلكل أمة - كذلك- مفرداتها ومصطلحاتها.. **هذه واحدة، والأخرى: أن مطلق عنف يستحيل أن يكون جهاداً، وإن انتحل اسم الجهاد.** ذلك أن للجهاد في الإسلام شروطاً لا يصح إلا بها.. ومن هذه الشروط: أن يعلنه الحاكم الشرعي المقتدر، وأن يتجنب قتل الأبرياء..

وألا يكون علواً في الأرض ولا فساداً.. وألا يكون مبادأة بنقض العهود والمواثيق.. وألا يكون أمنية وهواية للقاء العدو، إذ الأصل هو السلام بين الأمم.

وبالنفاذ إلى صميم الموضوع ينبغي أن يستقر في العقول والضمائر والأفئدة - بادئ ذي بدء - أن الجهاد بمفهومه الصحيح - ليس هو (الطريق الوحيد إلى الجنة).. فالحقيقة المنهجية في الإسلام تؤكد - بمثابة الأدلة والبراهين - أن (للجنة ألف طريق)، بل أكثر من ذلك.

وهذا إجمال يتطلب تفصيلاً موثقاً بالأدلة من الكتاب والسنة:

أولاً: من طرق الجنة في ا لقرآن:

١- طريق المسارعة إلى مغفرة الله بمباشرة مؤهلاتها: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

٢- طريق إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل والإنفاق في سبيل الله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُم الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

٣- طريق معرفة مقام الله وتعظيمه وتمجيده وتقديسه وتحرير النفس من أغلال الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

٤- طريق التسامح والصفح والتعامل الرفيع مع الناس: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.. والحظ العظيم هو الجنة.

ثانياً: طرق الجنة في السنة:

١- طريق سقيا كلب عطشان. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى (التراب اللين) من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر

اللّه له، فغفر له، فأدخله الجنة».. وفي رواية أخرى: أن بَغياً فعلت مثل ذلك فغفر لها به!!

٢- طريق (الغرس العام) للنفع العام للكائنات جميعاً، قال النبي: لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة».

٣- طـريـق الخـصـال النبيلة الـكـثـيـرة المتـنـوعـة، قـال النبي:«أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز، مامن عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله اللّه بها الجنة».. ومنيحة العنز: أن يعطي إنسان إنساناً: عنزاً ليستفيد من لبنها ثم يردها إليه.

٤- طريق تنظيف (البيئة) من كل ما يشوهها ويلوثها قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

أ- «رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين».

ب- «عرضت عليّ أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ووجدته في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن»: النخاعة هي النخامة.

٥- طريق ذكر الله جل ثناؤه.. قال النبي:

أ- «من قال سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة».

ب- «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة» فقلت: بلى. قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ج- «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا: بلى. قال:«ذكر الله».

٦- طريق طلب العلم.. قال رسول الله: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله به طريقاً إلى الجنة».

٧- طريق الكدح باليد، وإعانة الملهوف والأمر بالخير وكف أذى الذات عن الناس.. عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «على كل مسلم صدقة» قال: أرأيت إن لم يجد. قال:«يعمل بيده فينفع نفسه وليتصدق». قال:أرأيت إن لم يستطع. قال:«يأمر بالمعروف أو الخير». قال: أرأيت إن لم يفعل. قال: «يمسك عن الشر فإنها صدقة».

٨- طريق (السمو الأخلاقي).. قال النبي:

أ- ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق».

ب- وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق».

ج- «أن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً».

د- «ألا أخبركم بمن تُحرم عليه النار؟ تحرم النار على كل قريب هين لين سهل».

وبهذه الأدلة - ونظائرها - من الكتاب المجيد وصحيح السنة: نستيقن بأن للجنة ألف طريق، بل أكثر من ذلك.

وهذه الحقيقة مسنودة بمضامين ومفاهيم ومقاصد مبسوطة الساح متألقاً السنا.

أولاً: أن من مقاصد الإسلام (توسيع) طرق الخير وتنويع ذرائعه، في كل مجال وعلى كل مستوى.

ثانياً: أن (الجهاد) - بمعناه القتالي الدفاعي - عمل استثنائي، أي ليس طول العمر ولا على مدار الأربع وعشرين ساعة. فالقتال ممنوع في حالات السلم والتعاهد والهدنة والعجز.. إلخ، فهل تسد الطرق إلى الجنة في هذه الأحوال

العديدة المديدة.. لا يجيب بنعم إلا محروم من العلم بالإسلام. ويستحيل أن يجود المحروم بما حرم منه، أو أن يتقن الوصف من لم يشاهد.. وبالعجز عن الجواب بنعم، يتبين: أن طرق الجنة لا تكاد تحصى.

ثالثاً: أن كل عمل نافع هو معراج إلى الجنة إذا توافرت فيه شروط ثلاثة:

١- صحة الاعتقاد.

٢-صحة النية.

٣- صحة الوسيلة.

وبهذا تتضح سعة الأعمال المؤهلة للجنة، كما يتضح تنوع صورها وصيغها.

رابعاً: ختمت سورة العنكبوت - وهي مكية - بهذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ونلتقي - ها هنا - بمفهومين عظيمين: مفهوم أن الجهاد - هنا - لا يقصد به القتال حيث إن القتال لم يشرع في مكة.. ومفهوم أن هناك (سبلاً) يهدي الله إليها، لا سبيلاً واحداً.. وهذه السبل المتعددة كلها موصولة إلى الجنة.

(٥)

رائد النهضة التنويرية العظمى في التاريخ الإسلامي

قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة، وقف معلم البشرية: الحق والجمال والرحمة والكمال، وقف نبي الإسلام محمد - صلى اللّه عليه وسلم - بـ (عرفة) يؤذّن في الناس بما يسمى اليوم بـ (حقوق الإنسان): يؤذن بكرامة الإنسان، وحرمة الدماء والعرض والمال.. ويؤذن بالمساواة أمام الشريعة أو القانون.. يؤذن بالسلام العام.. ويؤذن بالنظام.. ويؤذن باحترام المرأة وتقديرها.. إلى غير ذلك من المفاهيم والقيم التي صدح وصدع بها وهو يودع الناس في مشهد الحج العظيم الذي احتشد فيه معظم المسلمين في ذلك العصر (حج مع النبي مئة ألف مسلم).

وهذا تمام مهيب بديع لما عمل له النبي قريباً من ربع قرن (٢٣ سنة).. وما عمل به عبر هذه المدة - القصيرة جداً في عمر النهضات والحضارات - هو: تأسيس (النهضة التنويرية الأكبر والأعمق) في تاريخ البشرية كلها.. وهذه جملة تحتاج

إلى تفصيلك ولندع نخبة من غير المسلمين من عقلاء البشر تتحدث عن هذه النهضة السعيدة المشرقة الواعدة:

١- كتب المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي) في كتابه (تاريخ البشرية) يقول:«كان لعبقرية محمد أثر كبير في نقل رسالة ربه إلى قومه، وقد كان تاريخ الجزيرة العربية مرتبطاً بذلك، وفي سنة ٦٢٢م تبدل الوضع تماماً لمصلحة محمد ورسالته. فقد جاءه مجموعة من الواحة الزراعية، أي يثرب أو المدينة، يطلبون إليه أن ينتقل إليهم، ويتولى أمورهم. وبعد ذلك انتشر الإسلام في العالم وأثر فيه بعمق».

٢- وكتب الفيزيائي الأيرلندي النابه جون ديزموند برنال في كتابه الموسوعي (العلم في التاريخ) يقول:«سرعان ما أضيف إلى تلك العوامل السلبية، ومنها الفراغ الذي يعيشه العالم: عامل إيجابي وهو ظهور دين عالمي جديد وانتشاره بسرعة، فالحواجز اللغوية والدينية والحكومية التي كانت حتى القرن السابع الميلادي؛ تعزل كل ثقافة داخل محيط إقليمها. هذه الحواجز قد زالت فجاة في كل الأرجاء تقريباً ما بين المحيطين: الهندي والأطلسي، وقد أشاع الإسلام المحبة الأخوية بين كل الأجناس، وحدد لتابعيه شعائر دقيقة،

وكانت فلسفته قائمة على التوحيد. لقد كان ديناً راسخ الأسس في قلوب الناس».

٢- وكتب الزعيم الهندي المعروف (جواهر لال نهرو) في كتابه (لمحات من تاريخ العالم) يقول: «والمدهش حقاً أن نلاحظ أن هذا الشعب العربي الذي ظل منسياً أجيالاً عديدة: بعيداً عما يجري حوله، قد استيقظ فجأة، ووثب بنشاط فائق أدهش العالم وقلبه رأساً على عقب. إن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا والحضارة الراقية، والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ. والإسلام هو الباعث لهذ اليقظة بما بثه من ثقافة وثقة ونشاط».

وهذا ذاته شيء من التفصيل يحتاج إلى مزيد من التفصيل.

فمن نماذج النهضة التنويرية الكبرى التي قادها نبي الإسلام:

أولاً: نهضة التنوير العقلانية، وهي البداية الحقة، إذ لا نهضة حقيقية في أي حقل، في غياب العقل، أو في حال تحجره وجموده، لذا نستطيع أن نقرر - بهدوء وثقة ويقين-: أن

النهضة التنويرية العظمى على يد نبي الإسلام، كان (العقل) مفتاحها ونافذتها وآليتها ومدخلها.

وهذا هو التعليل العقلي والمنهجي لهذ الحقيقة.. لقد كانت الجزيرة العربية، وكان العالم كله في (غيبوبة عقلية)، وكان (الجمود الفكري) هو: العملة الرائجة والعرف الضاغط السائد الطاغي.. ويستحيل - بإطلاق - أن يحصل تقدم ونهوض وتحرير وتنوير بينما العقل (غائب) والفكر (متحجر).. ومن هنا: فقد كانت الأسبقية المنهجية والتطبيقية هي: (استحضار العقل الغائب)، وتحريك الفكر الجامد وتشغيله بأعلى معدلات طاقته.

ولقد تبدت هذه الأسبقية المنهجية في سياقات قرآنية متنوعة منها:

أ- سياق (الأمر الحصري) في البدء، أو الأمر بمطلوب واحد وحيد وهو (التفكير).. ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**﴾.. واحدة فحسب وهي: أن تكون حرية التفكير وحركته بديلاً لحالة الجمود الفكري، فما تفهم الرسالة - قط - والحالة هذه. وإنما نزلت الرسالة لتفهم.. ولا يتجادل العقلاء في أن المقدمة الأولى للفهم هي: أن تكون

أداة الفهم: حية لا ميتة.. متقدة لا منطفئة.. منفتحة غير منغلقة.. متحركة غير هامدة ولا جامدة.

ب- سياق التحريض على التفكير عن طريق النظرة الذكية المحدقة في النفس والكون: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

جـ- وسياق الصعق بالمقارنات القياسية: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ .

د- وسياق الحملة الطويلة الملتهبة المركزة على التقليد الغبي الضرير على ما كان دون عقل ولا تفكير ولا حجة ولا برهان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾.

ثانياً: النموذج الثاني من النهضة التنويرية الكبرى التي قادها نبي الإسلام، إنما هو نموذج أثمرته النهضة العقلانية الفكرية القوية اللماحة. فقد أثر تفجير طاقة العقل والتفكير: منهجاً علمياً موضوعياً في التعامل مع الكون بعلم، ومن هنا بدأت المسيرة البشرية الصحيحة في العلم بـ (الكونيات) والتعامل الممتاز معها.

ولندع - ها هنا أيضاً - نخبة من غير المسلمين من عقلاء

البشر: تتحدث - بعلم وأمانة - عن هذه القضية: قضية (أسس النهضة العلمية):

١- يقول جون برنال: «صعد الإسلام صعوداً فجائياً، وكان الأثر المباشر لذلك هو التنشيط الكبير للثقافة والعلوم. وقد أصبح الإسلام نقطة التجمع للمعارف الآسيوية والأوروبية، ومن ثم تدفقت في هذا المجرى المشترك سلسلة من المخترعات لم تكن معروفة ولا متاحة للتكنلوجيا اليونانية والرومانية».

٢- العالم المؤرخ الثاني الذي يوثق هذه الحقيقة هو (هوبرت ولز). فقد سجل في كتابه (موجز تاريخ العالم) هذه الشهادة إذ قال: «لقد تمت للعرب في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم، ولا شك أنهم وفقوا إلى مستنبطات هائلة في المعادن، وفي التطبيق الفني لها. ولهذه التطبيقات قيمة قصوى، وأثر عميق في نهضة العلوم الطبيعية في أوروبا».

٣- أما المؤرخ العالم الثالث فهو (بول كندي) الذي جهر بهذه الحقيقة - العلمية في كتابه (نشوء القوى العظمى وسقوطها) فقال: «إن قسطاً كبيراً من الموروث الثقافي والعلمي الأوربي هو في حقيقة الأمر (استعارة) من الإسلام

والمسلمين».

ثالثاً: النموذج الثالث من هذه النهضة التنويرية التي قادها نبي الإسلام هو: (نموذج التسامح الإنساني والديني).. ولنكتف بمثالين فحسب في هذا المجال:

١- استشهد دوغلاس ريد - في كتابه: جدل حول صهيون- بمقولة واضحة وأمينة لأوغسطين. وهذه الكلمة هي: «إن الإسلام أجاز لغير المؤمنين به الحرية الاقتصادية، وإدارة شؤونهم الخاصة، وكان الإسلام متسامحاً مع أتباع الديانات الأخرى. وأن ما حققه الدين اليهودي من ازدهار بحرية في ظل الإسلام، ما كان بالإمكان تحقيقه في بداية انتشار الديانة المسيحية».

ب- المثل الثاني: ما قاله المفكر اليهودي المشهور (إسرائيل شاحاك) في كتابه (الديانة اليهودية) إذ قال: «ثمة حقيقة مهمة وهي: أن طرد اليهود لم يكن معروفاً عملياً في بلاد المسلمين، لأن هذا الطرد يتناقض مع الشريعة الإسلامية».

رابعاً: النموذج الرابع من هذه النهضة التنويرية الإنسانية العالمية، التي قادها نبي الإسلام هو (إعلان وحدة الأسرة البشرية) في ذلك الزمن القصي الذي كانت تسوده

العصبيات العرقية والقومية والقبلية والعشائرية، بل كانت تسوده التعصبات فيما بين أبناء القبيلة الواحدة.

ومن مبادئ إعلان وحدة الأسرة البشرية: قول الله تعالى في كتابه المجيد:

أ- ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾.

ب- ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾.

هذا هو نبي الإسلام الذي وقف بعرفة قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة ليؤذن في العالمين بحقوق الإنسان، وليتولى قيادة النهضة التنويرية الكبرى في التاريخ الإنساني كله.

ونبي هذا شأنه، وهذا عمله الجليل في الكفاح من أجل تقدم البشرية وإسعادها، ينبغي أن تعرف البشرية له حقه العظيم، وأن توفيه إياه. أما وفاء المؤمنين به فهو اتباعه والتزام منهجه. وأما وفاء غير المؤمنين فهو تقديره واحترامه وتوقيره من حيث أنه رائد إنساني عظيم قدم للإنسانية الكثير.. الكثير من العلوم والمعارف والقيم الأخلاق وعلمها: كيف تكون علاقتها بربها؟ وكيف تتكون علاقة الإنسان بالإنسان؟ وكيف تكون علاقة الإنسان بالكون؟

ومن هنا، فإن الإساءة لنبي الإسلام: ليس عنصرية عرقية وعصبية دينية كريهة فحسب، بل هي - كذلك- جحود إنساني وأخلاقي وحضاري.

الفصل السادس

محمد: مقامه عند ربه ومكانته لدى المسلمين

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

محمد: مقامه عند ربه ومكانته لدى المسلمين

من صفات الله إنـه عليم حكيم: يختار ما يريد بعلم وحكمة:

أ- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

ب- ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

وبالعلم المحيط، وبالحكمة البالغة: يختار من البشر أنبياء ورسلاً:

فليس ثمة مصادفة ولا عشوائية.. ثم إن الأنبياء لا يخططون ليكونوا أنبياء، بل تأتيهم النبوة على حين غفلة، لأن الله هو الذي اختارهم لها بعلمه وحكمته ولطفه وفضله.. فالنبوة كانت بعيدة عن خاطر موسى - مثلاً - وعن تفكيره وأمانيه.. ولكن الله هو اختاره ليكون نبياً رسولاً: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾.

وبمقتضى علمه وحكمته: اختار الله سبحانه وتعالى: محمداً نبياً رسولاً من بين ملايين البشر الذين كانوا يعيشون في أوائل القرن السابع الميلادي.

أ- ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

ب- ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾.

جـ- ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾.

د- ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

مقام محمد عند من اختاره نبياً:

والله العليم الحكيم الذي اختار بعلم وحكمة لا بد أن يكون اختياره جميلاً شريفاً معظماً عالي الشأن.

نعلم هذا من كلام الله الذي أنزله على نبيه محمد صلى

الله عليه وسلم. فقد عظم الله نبيه المختار محمداً، ورفع قدره في القرآن فقال:

أ- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

ب- ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾.

جـ -﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

د- ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

هـ- ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

و- ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

ز- ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

حـ- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

ط-﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

فهو عند الله – كما وصفه سبحانه – شاهد على البشرية

شهادة: حق وعدل: بميزان الحق والعدل الذي جاء به وهو المبشر الداعي إلى كل خير وحق وجمال وكمال.. وهو السراج المنير.. وهو المرفوع الذكر أبداً.. وهو ذو الخلق العظيم... وهو الذي يتحرك ويسكن ويتكلم ويفعل ويبلغ ويهدي ويعلم ويزكي تحت عين الله، وبمحبة وحراسة وحفظ منه جل شأنه.. وهو المصلى عليه من الله والملائكة والمؤمنين.. وهو الذي اشترطت طاعة الله بطاعته.. وهو الذي لا يجوز رفع الصوت فوق صوته.. وهو رحمة للعالمين وهو الذكر الذي يذكّر بالله دوماً: بقوله وفعله وخلقه وسلوكه.

ولما كان النبي محمد ﷺ في هذا المقام الجليل عند ربه، فإن الله تولى - بذاته العليّة - الدفاع عن نبيه ورسوله وحبيبه وخليله ومصطفاه:

أ- ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾.. ومن دلالات الآية: أن الذي يظن أن الله لن ينصر نبيه، إنما هو امرؤ ممتلئ وهماً إلى درجة التخبط والمشقة ثم الهلاك، ذلك أن الله ناصر نبيه بيقين لا يكتنفه شك قط.

ب- ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ**

اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا ﴾

جـ- ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ .

د- وحين وصف أحد المشركين النبي بأنه (أبتر) - أي الذي لا ذرية له - رد الله عليه بقوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ .

هـ - وحين سب أبو لهب النبي وقال له: تباً لك. رد الله عليه بقوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .

مكانة محمد في قلوب المسلمين:

إن المسلمين أتباع محمد، يقدر عددهم اليوم بمليار وأربعمائة مليون إنسان: من كل الأجناس والألوان واللغات والبيئات.. فإذا ضرب هذا العدد في أعداد المسلمين الذين عاشوا على هذه الأرض على مدى ١٤٣٨سنة، أي منذ بعث محمد نبياً ورسولاً وإلى يوم الناس هذا، فإن الرقم يصبح أضعافاً مضاعفة.

هذه المليارات من المسلمين يحبون النبي حباً حقيقياً عميقاً وصادقاً يفوق حبهم لأهليهم وأنفسهم.

لماذا؟

١- يحبونه لأنهم يؤمنون بوجود الله ووحدانيته ، وبقدرته على إنزال الكتب وابتعاث الرسل، ويؤمنون بحكمته العليا المطلقة في ذلك كله. فهو سبحانه لم يخلق الناس عبثاً بدون منهج هاد: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ .

فمنذ البدء، حين أهبط الله آدم إلى الأرض واستخلفه فيها: قضى بأنه سينزل منهجاً يهدي البشرية إلى التي هي أقوم، يحمل هذا المنهج أنبياء ورسل من لدنه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

وقد حقق الله وعده.. فالمنطلق العملي للتاريخ البشري يشهد بأن مسيرة البشر شهدت مواكب متتابعة للأنبياء والمرسلين: منذ نوح وحتى محمد صلى الله عليهم جميعاً وسلم، وهذا تاريخ يوثقه قول الله في كتابه ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

٢- يحبونه لأن الله الموجود الأحد القادر العليم الحكيم الذي رحم البشرية بإرسال المرسلين إليها هو الذي ابتعث النبي محمداً واختاره، وهو الذي قدمه للبشرية لكي تؤمن به وبرسالته: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾** .

والثقة بكلمة المقدِّم وحكمته، تتضمن - بلا ريب - الثقة بالمقدَّم وعظمته ومحبته، وهو النبي محمد: ولقد سبق المسلمون الآخرين في الإيمان بالنبي محمد واستضاءوا بالنور الذي جاء به، ومن ثم أحبوه بمقتضى قاعدة من ذاق عرف وأحب وأفلح **﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** .

٣- ويحبونه لأنه هو سبب هدايتهم، ونور حياتهم، إذ جاء بكتاب الهدى والنور وهو القرآن العظيم:

أ- **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾** .

ب- **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** .

ثانياً: هو سبب نور حياتهم: نور ضمائرهم وعقولهم

وقلوبهم: أ- ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾.

ب - ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

وأول الهداية، ومركز النور والتنوير: أن النبي محمداً عرّف المسلمين بربهم: خالقهم ومبدعهم وإلههم.. عرف المسلمين: كيف تكون العلاقة الاعتقادية والعبادية والسلوكية بالله؟

فمحمد - صلى الله عليه وسلم - هو الذي علّمنا وغرس في قلوبنا وأفئدتنا وعقولنا: أنه لم يخلق الكون إلا الله.. ولم يُقِمْه ويُجْره على نظام محكم بديع إلا الله.. ولم يخلق الإنسان في أحسن تقويم ويكرمه إلا الله.. ولا يعلم الغيب إلا الله.. ولا فعّال لما يريد إلا الله.. ولا يهدي إلى الحق إلا الله.. ولا معبود - بحق - إلا الله، فله - وحده - العبادة الخالصة من كل شريك.. وهو الذي يكون مع الإنسان أينما كان.. وهو وحده الذي يعلم ما بذات الصدور.. وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنَةٌ ولا نوم.. وهو الذي عنده مفاتح الغيب ويعلم ما

في البر والبحر:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

وهذه المعرفة بالله: سعادة لا تماثلها سعادة: عند كبار العقول، أحرار الضمائر، أسوياء النفوس.

فكل إنسان سوى التكوين النفسي والعقلي: تهفو نفسه

ويتطلع عقله وقلبه إلى معرفة ربه الذي خلقه، وإلى محبته والتقرب إليه بما يحب من عباده وعمل وفق منهج يرتضيه سبحانه.

لقد كان زيد بن عمرو بن نفيل من رجالات العرب الباحثين عن طريق يعرفون به ربهم ويعبدونه، وذلك قبل مجيء النبي محمد نبياً ورسولاً، ولكن زيداً هذا كان (حيراناً) لا يدري كيف يعبد ربه. ولقد قال: «اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم».

والطريق أو المنهج الذي لا يعرفه هذا الرجل الذي اشتد به الشوق إلى العلاقة الصحيحة بربه.. هذا المنهج أتى به النبي محمد، فَعَرّفَنَا – بهذا المنهج –: كيف نعرف ربنا ونؤمن به ونحبه ونعبده ونسبحه بكرة وأصيلاً ونذكره ذكراً كثيراً.

ومن الخلق الأصيل النبيل الجميل: أن يحب المسلمون من كان السبب في هذه السعادة الحقة: سعادة العلاقة الصحيحة بالله الرحيم العظيم الجليل اللطيف الودود.

٤- والمسلمون يحبون النبي محمد لأنه (رحمة خاصة بهم)- بسبب إيمانهم به- كما هو رحمة عامة للإنسانية كافة.

أ- ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ب- ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾.

جـ -﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾.

٥- ويحبونه لأن محبة الله مشروطة باتباعه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٦- ويحبونه لأنه كافح وصبر وثبت وتحمل الأذى حتى كمل الدين، وتمت النعمة، وحتى وصل الإسلام إليهم: نقياً محفوظاً كاملاً تاماً. ولذلك حين سأل مئة ألف مسلم كانوا معه على عرفات في حجة الوداع، حين سألهم فقال:«وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا:نشهد أنك قد أديت، وبلّغت ونصحت. فقال:«اللهم اشهد. اللهم اشهد. اللهم اشهد»: اللهم اشهد أني بلغت دين الإسلام للناس تاماً كاملاً كما أردت.

دلائل محبة المسلمين لنبيهم ومظاهرها

أولاً: في عصره وعهده وبين ظهرانيه.

كان أصحابه يوقّرونه ويجلونه ويسارعون إلى تلبية ندائه،

والاستماع إلى كلامه وحفظه، وطاعة أوامره وتحري سنته واتباعها والتأهب الدائم لفدائه بأنفسهم.

ما الدافع الأول العظيم إلى ذلك كله؟.. الدافع الأول والأعظم هو (الحب).. حب الأصحاب لصاحبهم النبي صلى اللّه عليه وسلم.

ولندوّن سطوراً تنتظم دلائل وصوراً من محبة المسلمين الأوائل لنبيهم:

١- أحب أبو بكر صحبة النبي في الهجرة إلى المدينة، وقد حقق النبي له هذه الرغبة.. وفي الطريق كان أبو بكر يمشي أمام النبي ساعة، ثم يمشي خلفه ساعة. فسأله النبي عن السبب فقال أبو بكر: يا رسول ا للّه، أذكر المطاردين فأمشي خلفك، وأذكر الراصدين فأمشي أمامك، فقال النبي: «يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟» - أي تفديني بنفسك. فقال أبو بكر: نعم، والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون مصيبة إلا أن تكون بي دونك».

وكان أبو بكر يكثر من قوله للنبي: «فديناك بآبائنا وأمهاتنا».

٢- وكان عمر بن الخطاب يقول للنبي: «لأنت أحب إلي من

نفسي».

٣- في ليلة الهجرة: بات علي بن أبي طالب في فراش النبي ليفديه بنفسه: محبة له.. وقد سئل علي: كيف كان حبكم لرسول الله؟ فقال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ.

٤- حين أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال أبو سفيان بن حرب: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تُضرب عنقه، وإنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وإني جالس في أهلي: فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد لمحمد.

٥- في غزوة أحد حين خرج المسلمون يدافعون عن المدينة بمقتضى معلومات تؤكد أن الأعداء قد خططوا لمهاجمتها.. حين دارت المعركة: جرّد أبو طلحة الأنصاري من نفسه (ترساً بشرياً) يحمي النبي من سهام العدو. وقد أتبع الفعل والسلوك المحب بكلام محب إذ قال: يا نبي الله بأبي أنت، لا تشرف (أي تتطلع فيرونك)، ألاّ يصيبك سهم، نحري دون نحرك».

٦- حين دخل النبي المدينة المنورة في تمام رحلة الهجرة: شعر المسلمون بأن الضياء قد انتشر في كل شيء.. أما حين مات النبي فقد شعروا بأن الظلام قد عمَّ كل شيء فيها.. يقول الصحابي أنس بن مالك:«لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء.. فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء. وما نفضنا عن النبي الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا».

إنه شعور المحب الذي يرى النور في وجود حبيبه، ويرى الظلام في غيابه.

ثانياً: محبة المسلمين في العصور كافة لنبيهم

يقول النبي:«من أشد أمتي حباً لي يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله».

وهذه النبوءة المحبة: صدقها الواقع التاريخي من بعده: بدلائل وصور ومظاهر عديدة متنوعة منها:

١- إن كل مسلم يبّرح به الشوق إلى رؤية النبي في المنام.. ومن وفق إلى رؤيته منهم: يشعر بسعادة غامرة تملأ روحه وقلبه وشعوره، ويظل فؤاده المحب متطلعاً إلى رؤية جديدة.

٢- الاقتداء بالنبي وتحري سنته في القول والفعل.. فهذا

الاقتداء باعثه الحب، وهو - في الوقت نفسه - المعراج إلى محبة الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾.

٣- شد الرحال إلى زيارة مسجده والسلام عليه.

٤- الصلاة عليه بعد الأذان.. وفي التشهد في الصلاة.. وبين يدي الدعاء.. وفي خطبة الجمعة.. وفي بداية المؤلفات وختامها وفي سائر اليوم والليلة.

٥- تأليف ألوف الكتب في سيرته وسنته وشمائله.

٦- إبداع عشرات الألوف من القصائد الشعرية القويمة السديدة الجميلة في مدحه.

٧- الدفاع عن مقامه الشريف.

ومن دلائل محبة المسلمين لنبيهم، ومن مظاهر ذلك: أنهم مستعدون دوماً لفدائه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم، وبموجب هذا الاستعداد ينبعثون - تلقائياً - للدفاع عن مقامه الشريف إذا مسه أحد بسوء وهو دفاع يمليه الإيمان به، وتقتضيه محبته: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمن الإيمان به ومن محبته: نصرته. والنصرة تعني - بلا ريب - الدفاع عن مقامه الكبير، وحرمته المقدسة.

وليس صحيحاً أن يقال: إن الله قد تكفل بعصمة نبيه من الناس، وبالدفاع عنه، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ فلا داعي – من ثم – إلى دفاع المسلمين عنه.. ولا ريب أن الله قد عصم نبيه من أذى المؤذين حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة – تماماً على الذي أحسن – وذهب إلى ربه راضياً مرضياً طيباً مباركاً منصوراً. بيد أنه ليس هناك تعارض منهجي وعملي – قط – بين دفاع الله عن نبيه ودفاع المسلمين عنه.. وهذا هو دليل الاتساق والتكامل بين فعل الله وفعل المسلمين.

١– إن الله قد تكفل بالدفاع عن المؤمنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ومع ذلك ألزمهم بالدفاع عن أنفسهم: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

٢– إن الله نفسه – تقدس في علاه – وهو العزيز الغالب على أمره والذي يقول للشيء كن فيكون، والغني عن دفاع كل أحد: اختبر إيمان المؤمنين بالدفاع عنه ونصرته – سبحانه –:

أ– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

ب- ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

جـ- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾ .

وموجز هذه النقطة أن قدرة الله مرتبطة - في هذه المجالات- بمباشرة الأسباب التي شرعها الله، ورتب عليها الأعمال الإدارية الاختيارية، كما رتب عليها التفاوت في الدرجات بين المؤمنين.

إن مكانة النبي محمد جد عظيمة ومتجددة في نفوس المسلمين، وأن محبتهم له تعمر قلوبهم وأرواحهم دوماً، فهم - من ثم - يجهرون بهذا الحب، ولا يخافتون به.

إن الحب إذا اشتدت منازعه

لا يرتضي في هوى ليلاه تلميحاً

من هنا، فهم يعبرون عن هذا الحب في صيغ وصور شتى منها: صيغة الدفاع عن مقامه الكريم - بعزم ومثابرة- إذا تطاول عليه متطاول.

والمسلمون وهم يحبون النبي ويوقرونه ويعظمونه: لا يختل ميزان الحق في عقولهم وقلوبهم ومفاهيمهم.

ففي عقيدة المسلمين: هناك (فروق واضحة) جداً- لا تتداخل قط - بين مقام النبوة ومقام الألوهية.

فاللّه - وحده - هو الخالق الرازق الحي القيوم والمحيي المميت عالم الغيب والشهادة الذي يعلم كل شيء والقادر على كل شيء، وهو- وحده- المعبود الحق: بحق وهو العلي الأعلى الأحد الصمد المتفرد الذي لا يختلط بمخلوقاته، ولا تختلط به مخلوقاته.

والنبي - مهما عظم شأنه وتسامى مقامه واقترب من ربه - إنما هو خلق من خلق اللّه، وعبد أواب من عباده المخلصين الكبار:

أ- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ب- ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾

جـ- ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

لأجل هذا: جاء التوكيد على (بشرية) الأنبياء:

أ- ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ

تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

ب- ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ .

جـ- ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

وفي التوكيد على (بشرية) النبي: حكم علمية وعملية:

- حكمة المحافظة على صفاء العقيدة ونقاء الإيمان وحراستها من الوقوع في الخلط بين مقام الألوهية، ومقام النبوة.

- أن هذه البشرية: تثبت (استطاعة) البشر: الاقتداء بالنبي، فهو بشر مثلهم يستطيعون اتباعه ومحاكاته، وليس ملاكاً من غير جنسهم: يعجزون عن مجاراته: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ .

حقاً: إن النبي يلتقي مع البشر في (البشرية) ولكنه يفوقهم بملايين الدرجات والمراقي: بالاصطفاء الإلهي له... وبالوحي الذي تنزل عليه.. وبشرف العروج إلى ربه وبلوغه سدرة المنتهى وبالخصوصية الربانية في محبته وحراسته ورعايته: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾.